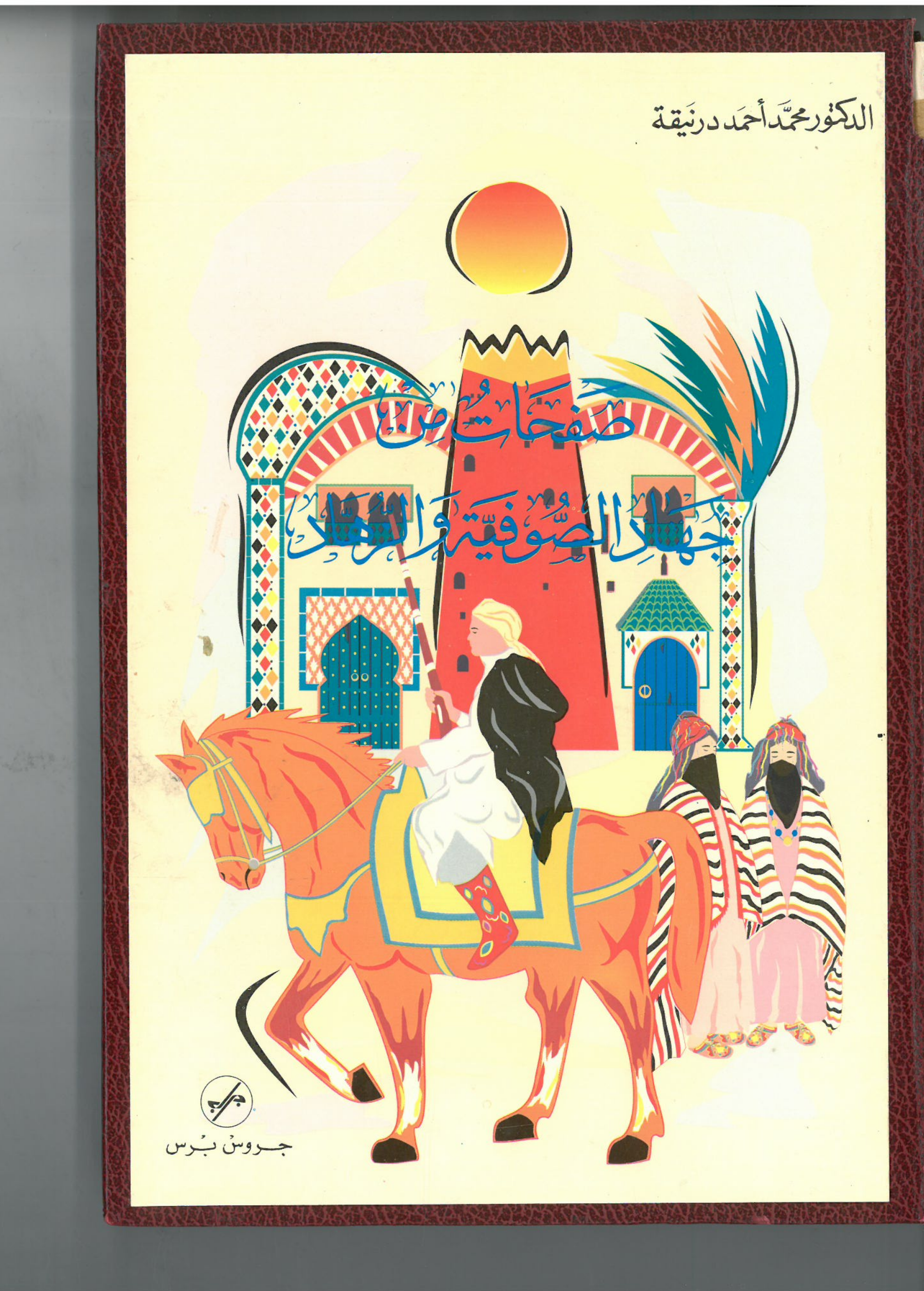

الدكتور محمّد أحمد درنيقة
صفحات من
جهاد الصُّوفيّة والزهاد
جروس برس

الدكتور محمّد أحمد درنيقة

صفحاتٌ من جهادِ الصُّوفيّةِ والزُّهّادِ

جروس برس

الطبعة الأولى

١٩٩٤ م - ١٤١٥ هـ

جروس برس

طرابلس - لبنان

فاكس: ٠٠١ ٢١٢٤ ٧٨٢٧٩٠

بسم الله الرحمن الرحيم

مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن
قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾

[الأحزاب ٢٣]

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

نحن نعيش في عصر تخاذل فيه المسلمون، واستكانوا إلى الدَّنيّة، ورضوا بالذل والهوان، وتخلوا عن الجهاد، ونكصوا على أعقابهم، واستسلموا لعدوهم. . . فأصبحوا غثاءً كغثاء السيل كما جاء في الحديث «"يوشك أن تداعى عليكم الأمم من كل أفق، كما تداعى الأكلة إلى قصعتها. قيل: يا رسول الله فمن قلة يومئذٍ؟ قال: لا. ولكنكم غثاءٌ كغثاء السيل. ينتزع المهابة من قلوب عدوكم ويجعل في قلوبكم الوهن: حب الدنيا وكراهية الموت»[(١)].

ولقد أشاع أعداء الإسلام أن الجهاد الإسلامي يعني «شراسة الطبع والخُلق، والهمجية، وسفك الدماء. وقد كان من لباقتهم وسحر بيانهم، وتشويههم لوجوه الحقائق الناصعة أنه كلما قرع سمع الناس صوت هذه الكلمة «الجهاد» تمثلت أمام أعينهم صورة مواكب من الهمج المحتشدة، مصلتة سيوفها، متقدة صدورها بنار التعصب والغضب، متطايراً من عيونها شرار الفتك والنّهب، عالية أصواتها بهتاف «الله أكبر» زاحفة إلى الأمام، ما إن رأت كافراً حتى أمسكت بخناقه وجعلته بين أمرين: إما أن يقول كلمة «لا إله إلا الله» فينجو بنفسه، وإما أن يُضرب عنقه»[(٢)].

---

(١) محمد علي الأنسي، المنهاج البديع في أحاديث الشفيع (بيروت ١٣٧٤هـ) ٣/ ١٢٩.

(٢) أبو الأعلى المودودي، الجهاد في سبيل الله (دار الفكر، بيروت دون تاريخ) ص ٣ ـ ٤؛ أيضاً، =

ومهما حاول هؤلاء الأعداء إخفاء سجلهم البشع فإنهم لن يستطيعوا ذلك، لأن التاريخ خير شاهد على جرائمهم الفظيعة التي ارتكبوها بحق الأمم والشعوب المستضعفة في مشارق الأرض ومغاربها، بحثاً عن أسواق لبضائعهم، وسعياً وراء الثروات والغلال، وطمعاً في أراضي الآخرين... وهذا ما وقع لأغلب شعوب آسيا وأفريقيا وأميركا الجنوبية، والذي كان للمسلمين منه حظ وافر، فقد أمعن الغربيون ولا زالوا، في بلاد المسلمين سلباً ونهباً، وتحكماً وظلماً وقهراً... تحقيقاً لشهواتهم الدنيئة، وتهديماً لمعالم الدين الإسلامي الذي يشكل عليهم خطراً جسيماً، إذ أنه يأبى ظلمهم واستبدادهم، ويتصدى لحملاتهم وغاراتهم على الشعوب الآمنة الوادعة، ويرفض استغلالهم للبشرية، ويقف بعناد أمام جشعهم ومطامعهم... مستنداً إلى تعاليمه السمحة التي تحضُّ على تحقيق العدالة والمساواة بين جميع البشر، والتي تعتبر أن الناس قد ولدتهم أمهاتهم أحراراً أعزاء، وأنه لافضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أحمر إلا بالتقوى، وأنه لا إكراه في الدين... إلى غير ذلك من التعاليم السامية التي جعلت شعوب الأرض تسارع إلى الإنضواء تحت لواء هذا الدين الحنيف لما يحمله إليها من عزة وكرامة وحرية وإباء. والواقع أن إفتراءات الأعداء تتهاوى أمام الحقائق التاريخية: فقد أُذن للمسلمين بالقتال بعد إخراجهم من ديارهم، فقد شرع الجهاد في المدينة المنورة لرد المعتدين وردع الناصبين العداوة لله ولرسوله وللمؤمنين. قال تعالى ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ [الحج ٣٩ ـ ٤٠]. وقال أيضاً ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة ١٩٠] فالقتال لم يشرع في الإسلام إلا دفاعاً عن النفس أو المال أو العرض. والعقيدة الإسلامية تمنع إكراه الناس على اعتناقها لقوله تعالى ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة ٢٥٦] فسيف الإسلام لم يُشهر في وجه المستضعفين، وإنما في وجه القياصرة والأكاسرة الذين يستعبدون الشعوب ويتسلطون على عباد الله، ويملكون الجيوش الجرارة. والفتوحات الإسلامية التي تمت تحت راية الجهاد في سبيل الله، لم تكن عملية توسعية عدوانية، تهدف إلى إخضاع العالم تحت حكم المسلمين،

= را: شوقي أبو خليل، تسامح الإسلام وتعصب خصومه (بيروت ١٩٩٠) ص ٣١.

ومن أجل مصالحهم وإمتيازاتهم واستبدادهم؛ وإنما هي عملية تهدف إلى مساواة الشعوب جميعاً في ظل العقيدة الإسلامية، فلم يكن هدفها تحقيق سيادة طاغوتية من استعباد وقهر، ونهب ثروات واستغلال طاقات، وتكريس الجاه والسطوة والنفوذ؛ وإنما تتوجه إلى تحرير الشعوب والإتحاد بها ليصبح الجميع في ظل الإسلام أمة واحدة.

ولئن ردد المجاهدون، وهم يدكون أسوار الجهالة والبغي، كلمة «الله أكبر» فهذا يعني أن المجاهد لا يمكن أن يكون الأكبر أو أن يكون إلهاً، كما كان يفعل الروماني أو اليوناني، أو كما يفعل المستكبرون اليوم. فهذا الهتاف دعوة تقول للشعوب: لا تخضعي إلا لله وحده، ولا تري أحداً عليك أكبر لأن الله أكبر(١).

فنحن بأمس الحاجة إلى العودة إلى هذه التعاليم، وإلى التمسك بالجهاد الشرعي حتى تسترجع هذه الأمة مكانتها السامية، ويعود ذكرها ساطعاً في سفر الأمم والشعوب الحية. فالجهاد باب العزة والكرامة لهذه الأمة.

فما هو هذا الجهاد؟ وما هو موقف الصوفية منه؟.

جاهَدَ في سبيل الله مجاهدةً وجهاداً أي جدَّ وبذل الوسع في سبيل الله.

«والجهاد في اللغة مشتق من الجهد بالضم أو الفتح وهو الوسع والطاقة. قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ [التوبة ٧٩]. وقد يستعمل بمعنى النهاية والغاية. قال تعالى ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ [الأنعام ١٠٩].

والمعنى العام للجهاد في الشريعة الإسلامية، كما استعمله القرآن الكريم والسُّنة النبوية الشريفة يقترب من المعنى الذي وضعه العرب لهذه الكلمة، مع ملاحظة القيد الذي قيده الإسلام للجهاد بأن يكون في سبيل الله تعالى، ومن أجل إعلاء كلمته، وتحقيق مطلبه سبحانه في حياة الإنسان، فيكون بهذا المعنى مشتملاً على جهاد النفس وأهوائها، وجهاد الشيطان، وجهاد الكفار، وجهاد المنافقين، وجهاد أهل المنكر وهم الظالمون والفاسقون»(٢) ففي جهاد النفس والصبر على نزواتها وشهواتها قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾

(١) را: منير شفيق، الإسلام في معركة الحضارة (بيروت ١٩٨٣) ص ١٢٩ ـ ١٣١.

(٢) جلال الدين السيوطي، اربعون حديثاً في فضل الجهاد، تحقيق مرزوق إبراهيم (القاهرة ١٩٨٨) ص ١٩ ـ ٢٠؛ صديق القنوجي، العبرة مما جاء في الجهاد والشهادة والهجرة، تحقيق محمد زغلول (بيروت ١٩٨٥) ص ١٥.

[العنكبوت ٦٩] ومعلوم أن «جهاد النفس أشد جهاد وأصعبه وأدومه، وهو جهاد بالليل وبالنهار، وفي العسر واليسر، وفي الضيق والسعة، وفي العقيدة والعبادة والمعاملة، وفي العزلة عن الناس والإجتماع بهم، وهو جهاد بالفكر والذكر والصوم والصبر، وكل أسباب التقوية الروحية، وهو جهاد يستدعي أن يكون الإنسان يقظاً واعياً، عالماً بمواطن الضعف، وأساليب الشيطان، وتيارات الباطل، ومداخل الشبه والشكوك، وعلوم الحرام والحلال، وأوامر الله ونواهيه»(١). وبدون هذا الجهاد الذي يزكي النفس ويصفي الروح يفقد المرء شخصيته، وتزول مناعته ومقاومته لكل عدوان عسكري، فالهزيمة النفسية أساس الهزيمة العسكرية، والإنتصار في ساح الوغى لا يتم إلا لأصحاب الروح المعنوية العالية وذوي النفوس الطاهرة. والصوفية فرسان هذا الميدان وأبطاله بلا منازع، فالصوفي الحقيقي هو الذي يهتم بتصفية نفسه، وتزكيتها، ومجاهدتها للإنتقال من النفس الأمّارة إلى اللوامة فالمطمئنة فالراضية فالمرضية، وهو الذي يحارب هواه، ويلجم شهوته المنحرفة، ويتخلى عن عاداته السيئة، وهو الذي يتبرأ من حوله وقوته، ويفوّض أموره لخالقه، متشوّقاً إلى محبته سبحانه ومحبة حبيبه ﷺ ومحبة الصالحين من عباد الله، وهَمُّه الوحيد الفوز برضا الله تعالى، إذ هدفه الأسمى: «إلهي أنت مقصودي ورضاك مطلوبي». فكل المجاهدات والرياضات التي يلجأ إليها الصوفي حتى يصفّي باطنه من الوساوس والخواطر الشيطانية، ويتخلص من الأخلاق الذميمة، والصفات القبيحة، ويتحلى بكل ما هو حميد وفاضل من الخلال والخصال، ليصل إلى محبة الله تعالى والفناء فيه.

والصوفي الصادق هو الذي يدعو إلى وجوب التزام الشريعة في كل أحواله وأعماله؛ لأن العصمة في الكتاب والسُّنة: فهذا الجنيد سيد الطائفة (الصوفية) يقول: «مَنْ لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث، لا يُقتدى به في هذا الأمر (التصوف)؛ لأن علمنا هذا مقيد بأصول الكتاب والسُّنة. الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى أثر الرسول ﷺ واتّبع سُنته ولزم طريقته»(٢).

(١) حسن أيوب، الجهاد والفدائية في الإسلام (بيروت ١٩٨٣) ص ٣٢.
(٢) عبد الحليم محمود، إبراهيم بن أدهم شيخ الصوفية (المكتبة العصرية بيروت) ص ١٧؛ أيضاً عبد الكريم القشيري، الرسالة القشيرية (القاهرة ١٩٥٩) ص ٢٠.

وهذا أبو يزيد البسطامي يعلن بكل صراحة وصدق: «لو نظرتم إلى رجل أعطي من الكرامات حتى يرتقي في الهواء، فلا تغترّوا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي وحفظ الحدود وأداء الشريعة»(١).

وهذا أبو الحسن الشاذلي مؤسس الطريقة الشاذلية المشهورة يقول: «ما ثم كرامة أعظم من كرامة الإيمان ومتابعة السُّنة. فمن أعطيهما وجعل يشتاق إلى غيرهما فهو عبد مفترٍ كذاب، أو ذو خطأ في العلم والعمل بالصواب»(٢).

وقد لاحظ دارسو حركة التصوف أن الناس من جميع الطبقات قد أقبلوا على المرشدين الصوفيين، وأحبوهم لما امتازوا به من إخلاص وصدق، وأمانة ونزاهة، وما تمتعوا به من عزوف عن الشهوات، وترك للمألوفات، والتزام بالعبادات والطاعات، وإقبال على المجاهدات، ورغبة شديدة في إفادة الخلق ومؤاساتهم ومشاركتهم في الهموم والآلام، وجبر قلوبهم وإدخال السرور عليهم... ورائدهم في ذلك قول النبي ﷺ: «الخلق عيال الله وأحب الخلق إلى الله من أحسن إلى عياله» رواه الطبراني في الكبير والأوسط وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في الشعب عن ابن مسعود(٣).

لذلك أقبل عليهم الجمهور، وتاب على أيديهم ملايين العصاة والمنحرفين، وأسلم مئات الألوف. وكان هؤلاء الصوفية «يبايعون الناس على التوحيد والإخلاص واتّباع السُّنة، والتوبة عن المعاصي وطاعة الله ورسوله، ويحذرون من الفحشاء والمنكر والأخلاق السيئة والظلم والقسوة، ويرغبونهم في التحلي بالأخلاق الحسنة والتخلي عن الرذائل(٤)، وتزكية النفس وأصلاحها، ويعلمونهم ذكر الله والنصح لعباده والقناعة والإيثار. وعلاوة على هذه البيعة التي كانت رمز الصلة العميقة الخاصة بين الشيخ ومريده، أنهم كانوا يعظّمون الناس دائماً، ويحاولون أن يلهبوا فيهم عاطفة الحب لله سبحانه، والحنين إلى رضاه، ورغبة شديدة لإصلاح النفس وتغيير الحال»(٥). وتجدر الإشارة إلى أنه لم يكن بوسع

(١) القشيري، الرسالة القشيرية، ص ١٥.
(٢) عبد الحليم محمود، إبراهيم بن أدهم، ص ١٦ - ١٧.
(٣) عبد الرحمن الشيباني، تمييز الطيب من الخبيث (بيروت دار الكتاب العربي) ص ٧٤.
(٤) مثل الكبر والحسد والبغضاء وحب الجاه...
(٥) أبو الحسن الندوي، المسلمون في الهند (دمشق ١٩٦٢) ص ١٤١.

سلطات الدولة وقوانينها ومؤسساتها القيام بهذا الدور والتأثير على هذا العدد الكبير من الناس وتحصينهم بمكارم الأخلاق وجميل الخلال.

وهناك جهاد الفتنة بأسلحة الصبر والثبات، وفي ذلك جاء في الذكر الحكيم ﴿وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت ٦].

وكذلك الجهاد يكون بالقرآن بما يحويه من القوة والسلطان والتأثير العميق والبيان الوافي للحقائق والقيم والحكم وهو مستند إلى قوله تعالى ﴿وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان ٥٢].

وجهاد الحكام الظالمين المستبدين مستند إلى قوله ﷺ «أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر»[1]. والمعروف أن معظم الصوفية قد التزموا بهذا الحديث النبوي الشريف فكانوا بذلك صوت الأمة الجريء الذي لا يخاف في الله لومة لائم، فمَنْ غير الزاهد يجرؤ على الوقوف في وجه الحكام الظلمة الذين انحرفوا عن جادة الحق والصواب فجرفوا البلاد والعباد إلى الأخطار الهائلة والمفاسد المدّمرة. وإذا أردنا التحدث عن جهاد الصوفية عند الحكام والملوك الطغاة لطال بنا الأمر، واحتاج إلى مجلدات. أنظر مثلاً إلى الشيخ العابد الزاهد شمس الدين الدمياطي، شيخ الجامع الأزهر أيام السلطان قانصوه الغوري، وقد بلغه أن السلطان قد ترك الجهاد البحري بحجة أنه لا يمتلك المراكب الضرورية لذلك، فأخذ الشيخ يهاجم السلطان من على المنابر وفي المجالس التي كان يعقدها في الجامع الأزهر؛ فلما بلغ السلطان ذلك استدعاه وطلب منه أن يأخذ حجته بعين الإعتبار، لكن الشيخ قال له: «عندك المال الذي تعمّر به». ثم ذكّره كيف أن الله تعالى قد منّ عليه بالحرية والإسلام ورقّاه إلى أن أصبح سلطاناً على الخلق، ثم أخذ في وعظه وتخويفه: «وعن قريب يأتيك المرض الذي لا ينجح فيه طب، ثم تموت وتكفن، ويحفرون لك قبراً مظلماً، ثم يدس أنفك هذا في التراب، ثم تبعث عرياناً عطشان جيعان، ثم توقف بين يدي الحكم العدل الذي لا يظلم مثقال ذرة، ثم ينادي المنادي: من كان له حق أو مظلمة على الغوري فليحضر،

(1) أخرجه أبو داود والترمذي والبيهقي عن أبي سعيد الخدري (را: الشيباني، تمييز الطيب من الخبيث، ص ٢٧).

فيحضر خلائق لا يعلم عدتها إلا الله تعالى»[1].

ولما تقاعص فخر الدين، صاحب حصن كيفا، عن مساعدة السلطان نور الدين زنكي في جهاد الصليبيين، قام زهّاد منطقته وعبّادها المنقطعون عن الدنيا وزخرفها يلعنونه، ويحرضون الناس عليه الأمر الذي حدا بفخر الدين إلى تسيير الجيوش لقتال العدو[2].

فمشايخ الصوفية الصادقون هم الذين ضربوا الأمثلة الرائعة في قول كلمة الحق بشجاعة وصراحة دون أن يهابوا في الله أحداً. ولم لا؟ فهؤلاء الزاهدون لا يرغبون في نوال الحكام، ولا يسعون لنيل رضائهم، ولا يطمحون إلى متاع الدنيا، بعد أن وجدوا أن فلاحهم يكمن في الفوز برضوان الله وحده، وبعد أن وصف الله تعالى الدنيا بالخسة والهوان. قال تعالى ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [النساء ٧٧].

فأين هذا الجهاد من نفاق كثير من العلماء الذين يحرصون على اسباغ الصفة الشرعية على القواعد والقوانين التي يصدرها الحكام المستبدون الظالمون. فكم من مدع للعلم والفقه والفتيا... يبيعون الفتاوى الشرعية لقاء دريهمات قليلة، ومتاع زائل، وجاهٍ فانٍ. تراهم يخافون الناس والحكام ولا يخشون الله. فهؤلاء قد ضلوا وأضلوا. ولما فشا أمرهم، وكثر عددهم إنحرف الحكام وتركوا الحكم بما أنزل الله، وأخذوا ينصبون أنفسهم أرباباً من دون الله. فالعلماء اللاهثون وراء الدنيا هم الذين أغروا المستبدين بهذا الإنحراف، حتى بتنا نرى العلماء يخافون الحكام ويرهبونهم، ولا يدخرون شيئاً في سبيل إرضائهم ولو على حساب الشريعة. ويحدثنا التاريخ عن علماء كانوا يجدون المبررات والأعذار للحكام الظلمة حتى يستمروا في ظلمهم وعسفهم وطغيانهم لقاء فُتات ينالونها.

وفي هذا المقام يحضرني ذكر بعض الذين يدّعون الغيرة على الإسلام من الإنحرافات والبدع التي أدخلها الصوفية، الذين يهاجمون التصوف، وينعتون أصحابه بالكفر والزندقة دون تفرقة أو تمييز إرضاءً لأسيادهم، وسعياً وراء متاع

(1) عبد الوهاب الشعراني، الطبقات الكبرى (بيروت المكتبة الشعبية) ٢/ ١٨٢ ـ ١٨٣.
(2) را: فايد عاشور، جهاد المسلمين في الحروب الصليبية (بيروت ١٩٨٨) ص ٢٣٣.

فانٍ. ونحن وإن اتفقنا مع هؤلاء في نقد بعض الصوفية المتفلسفين، إلا أننا نرى أن الجمهرة العظمى من الصوفيين مسلمون موحدون، زادوا في النوافل حتى يزكوا نفوسهم ويهذبوها ويصلحوا بواطنهم ويطهروها... وهذه أمور قد حثّ عليها الشرع الشريف.

وهناك جهاد الكفار ومقاتلتهم والذي يستند إلى قوله تعالى ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة ٢١٦].

وهذا النوع من الجهاد سوف يكون مدار بحثنا ومبلغ اهتمامنا. والمقصود به بذل النفس والتضحية بها وتعريضها للقتل في سبيل الله تعالى. والواقع أن المرء إذا سلّم نفسه لله تعالى سُمي مسلماً؛ وإن صدّق بالوحي سمي مؤمناً، فإن وقف بالمرصاد أمام الخواطر الشيطانية والأنسية ومنع تأثيرها على النفس سمي صابراً ومصابراً؛ فإن وقف عند حدود الله تعالى، وإذا غفل وتعداها تاب وأناب سمي مرابطاً؛ فإن ضحى بنفسه وما له وأهله ووطنه في سبيل دينه وإعلاءً لكلمة لا إله إلا الله سمي مجاهداً(١).

«ولخطورة هذا النوع من الجهاد، أُبرز في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ إبرازاً شديداً، وخُصّ بالذكر والحثّ عليه أكثر من غيره. وكان من مظاهر هذه العناية أن خُصّ بعنوان الجهاد، لظهور معنى المجاهدة والمعاناة فيه، ولعظم ما فيه من البذل والتضحية، لأن مجمع ما يبذل من الطاقات والقوى هو النفس، فإذا قُدمت في سبيل الله، فقد قدم صاحبها جميع ما أوتي من قوة، فيكون هذا النوع من البذل متضمناً لجميع أنواع التضحية، وإن أكثر ما أطلق عليه الجهاد في القرآن هو هذا النوع»(٢).

قال تعالى ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة ٤١]. وقال أيضاً ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ

(١) را: أيوب، الجهاد والفدائية في الإسلام، ص ٣١.
(٢) السيوطي، أربعون حديثاً في فضل الجهاد، ص ٢٢.

وَالْقُرْآنِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ۚ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة ١١١]. فالكتب السماوية كلها تأمر بالجهاد عند الضرورة والإقتضاء.

وقال أيضاً ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصف ١٠ ـ ١٣]. فالآيات كثيرة في هذا السياق وقد أوردنا بعضها على سبيل المثال.

وإذا انتقلنا إلى الأحاديث النبوية في هذا المجال لوجدناها كثيرة جداً لكننا نكتفي بإيراد أمثلة منها: «عن أبي ذر (ض) قال: قلت يا رسول الله أي العمل أفضل؟ قال: الإيمان بالله والجهاد في سبيله. وعن أنس (ض) أن رسول الله ﷺ قال: لغدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها»(١). و«عن أنس (ض) عن النبي ﷺ قال: إن لكل أمة رهبانية ورهبانية هذه الأمة الجهاد في سبيل الله»(٢).

و«عن أبي سعيد الخدري (ض) قال: قيل يا رسول الله أي الناس أفضل؟ فقال: مؤمن مجاهد في سبيل الله بنفسه وماله»(٣).

و«عينان لا تمسهما النار عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله»(٤).

وقد ارتبط الجهاد في الإسلام بكلمة في سبيل الله. «وهذا المصطلح الإسلامي

(١) مصطفى وهيب البارودي، الفوز الأبدي في الهدي المحمدي (بيروت ١٣٤٣هـ): ص ١٤٤؛ محمد الكاندهلوي، حياة الصحابة (ط. أولى، دمشق) ١/ ٦٨٧؛ صديق القنوجي، العبرة مما جاء في الغزو والشهادة، ص ٩٣ مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم (بيروت دار الآفاق الجديدة) ٦/ ٣٦.
(٢) السيوطي، أربعون حديثاً، ص ٦٥. أخرجه البيهقي.
(٣) م. ع. ص ٥٨. أخرجه البخاري ومسلم؛ صحيح مسلم ٦/ ٣٩.
(٤) م. ع. ص ٨٥. أخرجه الطبراني.

الخاص يطلق على الأعمال التي تؤدّى خالصة لوجه الله تعالى من غير أن يشوبها شيء من شوائب الأهواء والشهوات، يؤديها المرء معتقداً أن عمل الإنسان لسعادة إخوانه ينيله مرضاة الله تعالى، وأن غاية ما يتمناه الرجل من هذه الحياة الدنيا، ومايقوم به فيها من عمل هو ابتغاء وجه ربه الأعلى لا غير»[1].

لذلك حتى يكون القتال جهاداً يجب أن يكون في سبيل الله، أي لإعلاء شرعه ودينه، لما ورد عن النبي ﷺ «عن أبي موسى (ض) قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل للذكر، والرجل يقاتل ليرى مكانه فمن في سبيل الله؟ قال: مَنْ قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»[2]. لذلك فإن المجاهدين الحقيقيين هم الذين يسعون إلى رفع راية الإسلام، والإستشهاد في سبيل الله، لأن المعنى الشرعي للجهاد ينحصر في بذل النفس والمال وكل ما في الوسع من طاقة في القتال في سبيل الله لقوله تعالى ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات ١٥].

والجهاد في الإسلام إنما شرع للدفاع عن العقيدة، وحمايتها من الفتنة، وحماية منهجها وشريعتها في الحياة، وإقرار رايتها في الأرض بحيث يرهبها مَنْ يهم بالإعتداء عليها[3].

وعن طبيعة الإسلام الدفاعية يقول الرسول الله ﷺ: «لا تتمنوا لقاء العدو فعسى أن تبتلوا بهم، ولكن قولوا: اللهم اكفنا وكفَّ عنا بأسهم.

وكان من دعائه ﷺ: اللهم كف عنا بأس الذين كفروا إنك أشد بأساً وأشد تنكيلاً»[4].

وقد أجمع المفسرون على أن الجهاد قد شرع لتحقيق عدة أهداف أهمها:

---

(١) المودودي، الجهاد في سبيل الله، ص ١٤.
(٢) السيوطي، أربعون حديثاً، ص ٦٩. أخرجه البخاري ومسلم؛ أحمد فضل باشا، الأنوار النبوية (استنبول ١٣٢٩هـ)ص ٥٠؛ القنوجي، العبرة، ص ٩٥؛ صحيح مسلم ٤٧/٦.
(٣) را: عاشور، جهاد المسلمين، ص ١٤.
(٤) ابن قتيبة الدينوري، عيون الأخبار، الحرب والفروسية (دمشق ١٩٧٧) ص ٣٩.

أ - حماية المسلمين من الأعداء.
ب - حماية الدعوة الإسلامية حتى تصل إلى الناس بدون إكراه.
ج - حماية العقيدة والنفس والأرض[1].

لذلك «فالجهاد في سبيل الله عن طريق استعمال القوة المسلحة ليس مبدأ من المبادىء التي أسس عليها الإسلام، وليس أصلاً من الأصول التي لا بد منها للعقيدة أو العبادة أو المعاملة، إنما هو مبدأ الضرورة من أجل حماية الدعوة الإسلامية، والكلمة الإسلامية والجماعة الإسلامية، مثله مثل القصاص والحدود... إن وُجدت أسبابها وجبت، وإلا فلا. فهو بذلك واجب لغيره لا لذاته»[2]. فالإسلام «يمد يده لمصافحة أتباع الأديان الأخرى لتحقيق التعاون على إقامة العدل، ونشر الأمن، وصيانة الدماء أن تسفك، وحماية الحرمات أن تُنتهك. والإسلام لم يقم على اضطهاد مخالفيه، ومصادرة حقوقهم أو تحويلهم بالكره عن عقائدهم، أو المساس الجائر لأموالهم وأعراضهم ودمائهم. وشتان بين التسامح والضعف والعجز، فكثيرون لا يقدِّرون هذا النبل، وربما استغلوا هذه السماحة في الإساءة إلى الإسلام الذي وسعتهم دائرته المرنة»[3] لقوله تعالى ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الممتحنة ٨ ـ ٩].

ولا يقوم بأمر الجهاد إلا الرجل العاقل، لأن للجهاد شروطاً: أحدها أن يكون المجاهدَ ذكراً، فأما النساء فلا يجب عليهن، لما روت السيدة عائشة (ض) قالت: قلت يا رسول الله هل على النساء جهاد؟ فقال: جهاد لا قتال فيه، الحج والعُمرة. وأما الشرط الثاني: الحرية، فلا يجب على العبد، ولأنه عبادة تتعلق بقطع مسافة فلم يجب على العبد كالحج. والشرط الثالث البلوغ. والرابع العقل.

---

(١) را: عبد الله حلاق، الجهاد والتغير (بيروت ١٩٨٥) ص ٧.
(٢) أيوب، الجهاد، ص ٤٥.
(٣) أبو خليل، تسامح الإسلام، ص ٥٤.

الخامس المستطيع. وأن يكون صحيحاً في بدنه، قادراً على النفقة»[1].

هذا في الأحوال العادية حيث يكون الجهاد، بإجماع المسلمين، فرض كفاية، أي إذا قام به البعض سقط عن الآخرين؛ لكن إذا غُزي المسلمون من قبل عدو، واحتُلت أرض إسلامية فيصبح الجهاد ساعتئذٍ فرضَ عينٍ، أي على كل مسلم ومسلمة حتى يدفعوا العدو عن بلادهم[2].

وهذا الأمر لا يختص به المسلمون وحدهم، فكل الشعوب تعلِّم أبناءها أنها متى تعرضت للخطر فإنه يتوجب على كل فرد من أفرادها أن يقوم ببذل الغالي والنفيس، في سبيل دفع الخطر، وفي التعاون فيما بينهم لكسب المعركة. فقد يقوم البعض بقتال العدو والإلتحام معه في ساحات الوغى وميادين الشرف والتضحية، وقد يقوم البعض بإمداد المقاتلين بالأسلحة والمؤن، وقد يقوم البعض برعاية أسر المجاهدين، وقد يقوم البعض باسعاف الجرحى ودفن الموتى والعناية بالمرضى والعجزة... إلى غير ذلك من النشاطات التي لا يتم الإنتصار إلا بها.

والقاعدة الشرعية أنه إذا «غزا الكفار بلداً مسلماً، استنفر الإمام كل مَنْ فيه من المسلمين، فإذا ما اتسع نطاق الخطر إزداد الإستنفار حتى يعم العالم الإسلامي بأسره»[3].

فإذا أمر الإمام بالجهاد المقدس فعلى كل مسلم مكلف أن يطيعه إلا إذا كان معذوراً. وإذا لم يقم حكام المسلمين بأمر الجهاد، وتقاعسوا عن النضال، فإن عامة المسلمين مطالبون بإرغامهم على دفع العدو، لأن هذه القضية مقدمة على كافة الأمور والأحوال[4].

ويدخل في معنى الجهاد «كل جهد مباشر يبذل من أجل القتال، سواء كان سابقاً عليه، أم لاحقاً له، فيدخل فيه الاعداد والتمرين والحراسة والمرابطة وغير

(١) عاشور، جهاد المسلمين، ص ١٧ ـ ١٨.
(٢) را: حلاق، الجهاد والتغيير، ص ٣٧ ـ ٣٨.
(٣) الشنتناوي وخورشيد ويونس، دائرة المعارف الإسلامية (القاهرة ١٩٣٣) ٧/ ١٨٩.
(٤) را: عاشور، جهاد المسلمين، ص ١٥.

ذلك من الأعمال التمهيدية أو التابعة للقتال، وإن كانت هذه الأعمال تتفاوت عند الله عزّ وجلّ بتفاوت ما فيها من تضحية»[1]. قال تعالى في الإعداد لقتال الأعداء ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال ٦٠].

فالأمة الإسلامية أمة مجاهدة، مأمورة من الله تعالى بإعداد القوة لمواجهة الأعداء، لذلك يجب على المسلم أن يكون دائماً متيقظاً مستعداً للجهاد وتقديم المهجة رخيصة في سبيل الذود عن بيضة الإسلام، وحماية الدعوة والدعاة[2].

ومنافحة الأعداء ومجاهدتهم يجب أن تكون بكل الوسائل المتاحة: بالقلب، باللسان، باليد... بإنفاق المال وبذل الأرواح وإزهاق النفوس في سبيل الله. وقد رسم القرآن الكريم طريق النصر، وذلك بإعداد العدة وبتعبئة الجماهير أي بتهيئة المجاهدين مادياً ومعنوياً. ثم بتذكيرهم بأن الجهاد يجب أن يكون خالصاً لوجه الله تعالى. ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد ٧]

وبيّن لهم أن الثبات في أرض المعركة يكون بذكر الله سبحانه وطاعته وعدم الإختلاف. قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال ٤٥ - ٤٦]

فإذا التقى الجيشان وجب على المسلمين الثبات، وحُرِّم عليهم الفرار والإدبار إلا إذا كان العدو أكثر منهم بثلاث مرات[3]. وشاءت حكمة الله تعالى أن يجعل الجهاد إختباراً لمعرفة الصادق في إيمانه من المنافق والمرائي. قال تعالى ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران ١٤٢]. فلا يكون المؤمن صادقاً إذا قعد عن الجهاد في سبيل الله حرصاً على حياة، أو خوفاً على مال أو سعياً وراء لذة عابرة ومصالح شخصية ضيّقة، أو طلباً للدعة والراحة. قال تعالى ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ

(١) السيوطي، أربعون حديثاً، ص ٢٤.
(٢) را: حلاق، الجهاد والتغيير، ص ١٤ وص ٢٥.
(٣) را: أحمد عطية الله، القاموس الإسلامي (القاهرة ١٩٦٣) ١/ ٦٤٥.

﴿يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات ١٥]. وفي القرآن الكريم آيات عديدة تحذر من التخلف عن الجهاد وإهماله، وإيثار الحياة الدنيا وزينتها وزخرفها وشهواتها. قال تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة ٣٨] فالله سبحانه يحذّر المتثاقلين المنصرفين عن الجهاد، ويبين لهم أن متاع الدنيا فانٍ، ولذتها زائلة، وسرورها قليل... بالنسبة إلى الحياة الآخرة. ثم ينتقل سبحانه إلى التهديد والوعيد بالعذاب الأليم للذين رضوا بالقعود عن الجهاد، والذين فروا عن الزحف ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ﴾ [التوبة ٣٩].

وقال أيضاً ﴿وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال ١٦].

ويذكرهم المولى عزَّ وجلَّ بأن الموت والحياة بيد الله سبحانه، فكم من مقاتل في مقدمة الصفوف تمر به سهام الموت دون أن تصيبه، وكم من قاعد في عقر داره يقبضه ملك الموت وينتزع روحه من بين أهله وأحبابه. قال تعالى ﴿أَيۡنَمَا تَكُونُواْ يُدۡرِككُّمُ ٱلۡمَوۡتُ وَلَوۡ كُنتُمۡ فِي بُرُوجٖ مُّشَيَّدَةٖ﴾. [النساء ٧٨].

لأن المتخلف عن الجهاد، لو استعرض الأسباب التي دفعته لذلك، لوجد في طليعتها خوف الموت ورجاء طول الأمل، وفراق محبوب من زوجة وأولاد وأهل وأصحاب، والتخلي عن جاه عريض، أو منصب رفيع، أو مالٍ وفير أو شهوات فانية أو زينة زائلة... وليت شعري، هل تبقى هذه الأمور لمخلوق؟ أم هل كُتب الخلود لأي مولود. قال تعالى ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ﴾ [العنكبوت ٥٧] وقال أيضاً ﴿إِنَّ ٱلۡمَوۡتَ ٱلَّذِي تَفِرُّونَ مِنۡهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمۡۖ﴾ [الجمعة ٨].

وفي الحديث «عِشْ ما شئت فإنك ميت، وأحبب ما شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك مجزي به»[1]

(١) القنوجي، العبرة مما جاء، ص ٥٥.

«ولو أنَّ الحياةَ تبقى لحيٍ   لعَدَدْنا أضلَّنا الشجعانَ».

فالخلود لله وحده، والمال سيظل في الدنيا، والمنصب والجاه إلى زوال، وحسن الزوجة وجمالها إلى تغير وقبح... فعلامَ نركن إلى الأرض، ونلجأ إلى الدَّنيَّة، وقد دعانا رب البرية إلى جنة عرضها السماوات والأرض، وإلى تسجيل أسمائنا في لوحة الأحياء المنعَّمين المرزوقين. لذلك لا يقعد عن الجهاد إلا مَنْ حُرم هذه النعم، وركن إلى هوى نفسه ومكر شيطانه.

«فإذا قُتل مسلم في سبيل الله مات شهيداً له الجنة، وله فيها من المتاع ما ليس لغيره من المؤمنين. وكانت الشهادة بين الأجيال الأولى من المتقدمين خير مآل يختم به الرجل الصالح حياته»[1].

ذلك أن الإستشهاد أسمى ما يمكن أن يقدمه المؤمن؛ لأن التضحية بالروح وتقديم النفس أقصى غاية الجود.

ولا عجب في إقبال جماهير الأمة على الجهاد، وتحمُّل الأهوال، وحب الشهادة إذا علمنا ما أعده الله سبحانه من ثواب عظيم وأجر كبير للشهداء الذين ضحوا بأرواحهم في سبيل إعلاء كلمته. «عن المقداد بن معد يكرب عن رسول الله ﷺ قال: للشهيد عند الله ست خصال: يغفر له في أول دفعة من دمه، ويرى مقعده من الجنة، ويُجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويُحلّى حلة الإيمان، ويُزَوَّج من الحور العين، ويُشفَّع في سبعين إنساناً من أقاربه»[2].

وقال تعالى ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ [آل عمران ١٦٩] وقال أيضاً ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ سَيَهۡدِيهِمۡ وَيُصۡلِحُ بَالَهُمۡ وَيُدۡخِلُهُمُ ٱلۡجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمۡ﴾ [محمد ٤ ـ ٦].

فالمجاهد ينال إحدى الحسنيين: النصر أو الشهادة. جاء في الحديث «إن في

(١) خورشيد، دائرة المعارف الإسلامية ٧/١٨٩.
(٢) عبد الله عزام، عبر وبصائر للجهاد في العصر الحاضر (بيروت ١٩٩٠) ص ٢٣؛ حلاق، الجهاد والتغيير، ص ٣١؛ صديق، العبرة مما جاء في الغزو والشهادة والهجرة، ص ١١٦.

الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض»[1].

لقد اطلع الصوفية المخلصون على هذه التعاليم من تلاوتهم للقرآن الكريم، ودراستهم للأحاديث النبوية، وتمعّنوا فيها واستفاضوا في معانيها، ورأوا ما للجهاد في سبيل الله من فضل وثواب، فأحبوا أن يتاجروا مع الله تعالى، ويدخلوا في دائرة الذين اشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم جنة المأوى. فقد قاتل هؤلاء الصوفية الصادقون في سبيل الله، لا في سبيل النفس والهوى، ورغبة في نيل رضا الله، وطلباً للفوز في الآخرة، وليس سعياً وراء الدنيا وزخرفها، ولهثاً لامتلاك العقارات واستعباد الناس. كانوا يحملون الكتاب والسُّنة بيد والسيف باليد الأخرى، يدافعون بشجاعة، وينافحون ببطولة وفداء، تارة دفاعاً عن ديار الإسلام، وطوراً في سبيل نشر كلمة لا إله إلا الله[2].

نقول الصوفية الصادقون المخلصون، لأن تاريخ التصوف الإسلامي قد عرف الكثير من الأدعياء والمخادعين، أصحاب الضلالات والإنحرافات والأباطيل والأوهام الذين ضلوا وأضلوا، الذين لم يفقهوا حقيقة الإسلام، ولم يدركوا جوهر التصوف؛ بل ظنّوه رسوماً ومظاهر، فكّرسوا جهودهم واهتماماتهم في لبس المرقعات، وإطالة السبحات، وترديد الهتافات، واستعمال الآلات المطربات المرقصات، والإستماع إلى الأغاني والآهات.

ولما دق ناقوس الخطر، وهجمت جيوش المستعمرين لقهر العباد وامتلاك البلاد، إذا بهؤلاء الأدعياء يميلون إلى الغرباء، ويساعدونهم في اغتصابهم لبلادهم، فيعملون أدلاّء ومرشدين لهم، أو يمنحونهم صكوك البراءة والغفران، ويدفعون العامة والدهماء إلى إطاعة أوامرهم، والإنصياع إلى توجيهاتهم، وعدم مخالفة تعليماتهم؛ لأن الله قد أرسلهم لنشر العدالة بين العباد...

ومنهم مَنْ اكتفى بمجاهدتهم بالإعلان بأن احتلال الأجنبي لديار الإسلام هو

(١) عبد الحليم محمود، إبراهيم بن أدهم، ص ٧٢. رواه البخاري.
(٢) را: عزة حصرية، الشيخ أرسلان (دمشق ١٩٦٥) ص ١٠٦.

من علامات الساعة. ومنهم مَنْ رسم خططاً جهادية ما أنزل الله بها من سلطان، فوضعوا الرقى والتمائم والتعاويذ والطلاسم لمحاربة المستعمرين المحتلين...

هؤلاء الأدعياء لا همَّ لهم إلا الإبقاء على زواياهم العفنة، وامتيازاتهم الرخيصة، والإبقاء على الوضعية الإقتصادية لزواياهم، وإعفائهم من الضرائب والرسوم...

نحن لا ننكر أن بعض مدّعي التصوف قد أضروا بهذه الحركة الروحية عندما لجأوا إلى التواكل والتكاسل والخمول، وانعزلوا عن مجتمعهم، فكانوا عالة على غيرهم، وحملاً ثقيلاً على كاهل أممهم وشعوبهم. لكن الصوفية الحقيقيين رأوا في التصوف دعوة إلى الجهاد بكل أنواعه: جهاد النفس وجهاد في المجتمع وجهاد أعداء الله... فالصوفي الحق لا يخاف الموت ولا يكرهه، بل بالعكس فهو يفرح به ويطلبه؛ لأنه يوصله إلى مطلوبه ألا وهو الإتصال بمحبوبه. والصوفي المخلص هو الذي يجتهد في الوصول إلى مرضاة الله تعالى، وطاعته، وطاعة رسوله ﷺ، لذلك تراه في كل أمر من أموره يمتثل للأوامر الإلهية ومنها أوامر الجهاد في سبيل الله.

لقد لاحظ الذين أرّخوا للتصوف أن هذه الفئة تتصل اتصالاً وثيقاً بحركتين اثنتين: الفتوة والمرابطة.

أما الفتوة فمشتقّة من الفتى الذي يعني «أحد الكرام من الناس ذوي المقام الإجتماعي المرموق على أن يكون شجاعاً كريم النفس نجّاداً. والفتوة تقوم ـ إذن ـ على الشجاعة وكرم النفس والنجدة ومساعدة المحتاجين إلى المساعدة»[1].

وقد أطلقت هذه اللفظة أولاً على الشطّار والعيّارين وقُطّاع الطرق. ثم أُطلقت على الصوفية الشجعان الذين يبذلون الغالي والنفيس لمساعدة المعوزين، وإغاثة الملهوفين، ونجدة المحتاجين.

وأما المرابطة فمشتقة من الرباط، وهي تعني الإجتماع في الثغور[2] للدفاع

(١) عمر فروخ، التصوف في الإسلام (بيروت ١٩٨١) ص ٢٦ ـ ٢٧.
(٢) الثغر هو المكان الذي يخشى منه هجوم العدو من البر أو البحر.

عن تخوم الدولة الإسلامية ضد العدو الذي يتربص بالمسلمين الدوائر[١].

«والرباط أصلاً، وهو منزل الصوفية، يشبه مخافر الحدود التي يقيم فيها لفيف من الجند المرابطين الذين يرصدون العدو، ويصدون حملاته. ولكن معنويات المرابطين تحتاج إلى تغذية، لا سيما وأن أوقاتهم تحتاج إلى إشغالهم بأمور لا تلهيهم عن رصد العدو من جهة، ولا تشعرهم بالملل من الفراغ من جهة أخرى، ولا شيء، مثل الأذكار والتربية الصوفية، يستطيع أن يؤدي هاتين الوظيفتين. حتى ليصح فيهم القول المأثور «رهبان الليل وفرسان النهار»[٢]. فالصوفي المرابط «يرابط في سبيل الله لإخافة الأعداء، وحماية الديار، وصيانة الثغور، ويتحمل على نفسه، ويفزع ليلاً ونهاراً من أجل أن يوفر الأمن للناس... كم من مرارة يتجرعها ليذوق مَنْ وراءه من المسلمين حلاوة النوم والطعام. إنه ترك أهله وعياله، وقد لا يكون لديهم طعام ولا لباس، ويكفي حرمانهم أنسه، وفقدانهم رعايته وتربيته من أجل أن يحمي آلافاً وملايين من الأسر مثل أسرته... إنه يرى الموت كل يوم مرات ليوفر الحياة الحقيقية والسعادة والعزة للأمة الإسلامية»[٣].

قال ﷺ «رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها»[٤] فالمرابطون أو الملثمون قدَّموا خدمة عظيمة للإسلام والمسلمين، سواء في المغرب العربي، أو في الأندلس؛ لما خاضوه في ميدان الجهاد الإسلامي، لا سيما بعد أن شهدت الأندلس تمزقاً وتفككاً وتراجعاً للمدِّ الإسلامي، إبان حكم ملوك الطوائف. ومعلوم أن مرابطي إفريقيا السمراء ينتمون، عموماً، إلى طرق صوفية متعددة أهمها: القادرية والتيجانية.

لذلك فإن كلمة المرابط تعني الصوفي الفعلي المحارب[٥] الذي أتقن فنون القتال، واستعمال مختلف الأسلحة السائدة في عصره.

(١) را: فروخ، التصوف في الإسلام، ص ٢٧ .
(٢) حصرية، الشيخ أرسلان ص ١٠١؛ عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي (بيروت ١٩٨١) ٣/ ٤٠ .
(٣) عزام، عبر وبصائر، ص ١٦ ـ ١٧ .
(٤) أيوب، الجهاد، ص ١٠٣ . رواه الشيخان.
(٥) را: فنسان مونتاي، الإسلام في إفريقيا السوداء، ترجمة الياس إلياس (بيروت ١٩٨٣) ص ١٣٧ وص ١٤٢ .

«وفي منطقة الصحراء الكبرى (إفريقيا) هناك أربع طرق صوفية لعبت دوراً مهماً في نشر الإسلام، وفي التصدي للإستعمار الأوروبي في غرب ووسط القارة الإفريقية»[١].

وفي أيام الشيخ محمد المهدي السنوسي (ت ١٣٢٠ هـ/ ١٩٠٢م) الذي أسس العديد من الزوايا في جنوب الصحراء الكبرى، اصطدمت الحركة السنوسية وهي دعوة صوفية سلفية في آن واحد ـ بالفرنسيين في النيجر والتشاد وجنوب الجزائر، ووقعت عدة معارك ساهم فيها شيوخ الزوايا السنوسية وكانوا قادة المجاهدين. وبعد محمد المهدي تولى الشيخ أحمد الشريف قيادة الحركة السنوسية، وخاض معارك الجهاد ضد فرنسة أولاً ثم ضد إيطاليا[٢]...

وفي معركة دابق التي جرت قرب حلب، بين العثمانيين والمماليك، شارك مشايخ الصوفية وتلاميذهم السلطان المملوكي قانصوه الغوري في حربه ضد السلطان سليم العثماني[٣].

وفي الحرب العالمية الأولى شارك رهط من دراويش الطريقة المولوية في جهاد أعداء الدولة العثمانية؛ وكان هؤلاء الدراويش قد قدموا من قونية[٤] حيث كانت توجد أهم زاوية للطريقة المولوية...

وهناك شواهد كثيرة على اشتراك الصوفيين في حركة الجهاد في أطراف البلاد الإسلامية. صحيح أن بعض مشايخ الطرق الصوفية قد وقفوا إلى جانب المستعمرين، كما حصل في الجزائر والمغرب مثلاً، حيث سهَّل هؤلاء المشايخ دخول القوات الفرنسية إلى مناطقهم لقاء احتفاظهم بامتيازاتهم وعدم المساس بمصالحهم؛ لكن جلَّ فرقهم كانت تناصب المستعمرين العداء، وتدعو إلى الثورة، والإستعداد للجهاد، وتشارك جماهير الشعب في محاربة المعتدين، كما حصل في الأحداث الدامية لسنة ١٣٧٣ هـ/ ١٩٥٣م بالمغرب والجزائر، حتى أن

(١) محمد القشاط، جهاد الليبيين ضد فرنسا في الصحراء الكبرى (بيروت ١٩٨٩) ص ٢٥.
(٢) را: القشاط، جهاد الليبيين، ص ٣١.
(٣) را: كامل البالي، نهر الذهب في تاريخ حلب (حلب المطبعة المارونية) ٣/ ٢٤٧.
(٤) را: م. ع. ٣/ ٥٧٣.

أحد العسكريين الفرنسيين قال عن الدرقاويين الشاذليين إنهم قد أثبتوا «صلابة عقيدتهم وغلوها»[1].

والملاحظ أن الإهتمام بجهاد الصوفية يكاد يكون منعدماً؛ لأن أعداء التصوف حاولوا طمس هذه المعالم والبطولات. والصوفية أنفسهم ـ وهم الذين نذروا أنفسهم لملاقاة ربهم ـ لم يهتموا بالصيت والشهرة، كما يفعل الكثيرون، لأنهم طلّاب آخرة، وأهل صدق وإخلاص، ولأنهم مهما فعلوا من خير، وقدّموا من تضحيات، فإنهم يعتبرون أنفسهم مقصرين.

والواقع أن الذين أرّخوا للتصوف الإسلامي مروا على جهاد الصوفية الحربي مرور الكرام. فمنهم مَنْ يحاول إغفال هذا المجال حتى يظهر الصوفية بمظهر المنعزلين، المتقوقعين على أنفسهم، المتهالكين على طلب الصحاري والقفار، اللاهثين وراء البدع والضلالات والإنحرافات، والموغلين في الأباطيل والترهات... ومنهم مَنْ يقصر بحثه على جهادهم للنفس وتزكيتها وتربيتها، أي مجال الجهاد الروحي... ومنهم مَنْ يهتم بذكر طرقهم الصوفية التي يسلكونها... ومنهم مَنْ يحفل بذكر كراماتهم... ومنهم مَنْ يحرص على تكفير بعضهم...

لكننا لم نجد حتى الآن مَنْ يتصدّى لعرض نضالاتهم، وتصوير جهادهم لأعداء الأمة، لذلك جاء هذا البحث بمثابة ضوء مسلط إلى الناحية الجهادية الحربية عند الصوفيين.

ولعل هذه المقدمة المتواضعة ـ والتي يمكن التوسع فيها لتكون كتاباً خاصاً ـ قد تزيل العديد من الشبهات التي تحوم حول الصوفية، بسبب الجهل بهم، أو الحقد عليهم، إرضاءً لأسياد المتحاملين، وشغفاً بالحصول على دنيا زائفة، وأموال فانية...

نحن لا ندعي أن كل من لبس الصوف، أو حمل سبحة، وعف عن لحيته،

(١) را: عبد المجيد الصغير، إشكالية إصلاح الفكر الصوفي في القرنين الثامن والتاسع عشر (المغرب ١٩٨٨) ص ٣١٣.

وتمتم ببعض الكلمات ورقص وتواجد و... قد أصبح من رجالات التصوف الصادقين المخلصين. فهذه المظاهر قد يذمها الكثيرون؛ لأن المعول عليه هو تصفية الباطن وتنقيته وما يرشح على الجوارح من خشوع وخضوع.

وفي الصفحات التالية عرض لملامح طائفة من الصوفية والزهاد، الذين اندفعوا في تيار الجهاد، وأقبلوا على النضال، دفاعاً عن أرض الإسلام، ونصرة للحق والعدل والحرية. نهض هؤلاء الأبطال لنفض غبار الذل والهوان عن الأمة، يدفعهم إيمان عميق بالله تعالى، ورغبة صادقة في نيل رضوانه.

هذا البحث لا يتضمن ذكر تاريخ مفصّل لجهاد الصوفية الحربي، لكن يُكتفى بالإشارة إلى بعض أعلامهم في هذا المجال، وذلك على سبيل المثال لا الحصر، وحتى لا تكلّ الهمم في الإستطالة.

ولن يخلو هذا البحث ـ ككل بحث ـ من نقص أو عيب؛ لأن العصمة والكمال لكتاب الله الكريم وذكره الحكيم. لكن حسبي أن أكون قد أمطْتُ اللثام عن ناحية أغفلها العديد من الباحثين، ولم يكترث لها المؤرخون. ونرجو الله سبحانه وتعالى أن تزيل هذه الصفحات بعض ما علق في الأذهان، من تحامل وافتراء على فئة من الأمة، نذرت نفسها لإعلاء كلمة الحق، ورفع راية التوحيد، يحدوها الأمل بلقاء الرفيق الأعلى والقرب منه، والتمتع برؤيته سبحانه.

وعسى أن تكون سير هؤلاء الأبطال الميامين حوافز تثير النفوس، وتحرك الهمم، وتشد العزائم.

وليس غريباً أن نكتب عن الجهاد في الوقت الذي تدّمر فيه إسرائيل جنوب لبنان، فتهجّر الأهالي، وترمّل النساء، وتثكّل الأمهات، وتيتّم الأطفال... فتاريخنا المعاصر يشهد أنه مع كل شروق، يصيب الأمة من التقتيل والتشريد والتفرق والتشرذم والضعف والإنحلال والتفكك والوهن والخور... الشيء الكثير، حتى أصبحت أمتنا مطمعاً لكل طامع، وهدفاً لكل مغامر، وطعمة لكل ناهش، ولقمة سائغة لكل جائع... وذلك بعد عز وسؤدد، وتاريخ أمجد، وشجاعة وإباء، وتضحية وفداء، شهد بها الأعداء قبل الأصدقاء.

فالمآسي الآن منصبة على الأمة لأنها تركت الجهاد، واستكانت إلى الدَّعة والخمول، وارتاحت إلى الضعف والفتور، ورضيت بالتواكل والثبور «عن أبي بكر الصديق (ض) قال: قال رسول الله ﷺ: ما ترك قوم الجهاد إلا عمهم الله بالعذاب»[1]. فالجهاد هو الحل الأساسي لتغيير حال المسلمين المتردية، والذين يحاولون رد هجمات الأعداء، متخذين رايات بعيدة عن الإسلام لن يفلحوا في هذا الأمر؛[2] فلنعد سريعاً إلى رايتنا الأولى قبل أن يزداد تمزقنا وتبعثرنا وانقسامنا، وقبل أن تدوس هاماتِنا أقدامُ الأراذل والمستكبرين. هذه الهامات التي يجب أن لا تنحني إلا لخالقها وحده:

«عِشْ عزيزاً أو مُتْ وأنت كريمٌ ... بين طعنِ القنا وخفقِ البُنُودِ»

وتحضرني الأبيات التي أرسلها العابد الزاهد عبد الله بن المبارك، وكان مرابطاً في طرسوس، إلى الفضيل بن عياض المجاور في الحرم المكي:

«يا عابدَ الحرمينِ لو أبصرتَنا ... لعلمتَ أنك بالعبادَةِ تلعبُ
مَنْ كانَ يُخضِّبُ خدَّهُ بدموعِهِ ... فنحورنا بدمائِنا تَتَخضَّبُ
أوكانَ يُتعِبُ خيلَهُ في باطلٍ ... فخيولُنا يومَ الصبيحةِ تتعبُ
ريحُ العبيرِ لكم ونحنُ عبيرُنا ... رهجُ السنابِكِ والغبارُ الأطيبُ»[3].

والله سبحانه وتعالى من وراء القصد

طرابلسي في ١١ صفر ١٤١٤ هـ

٣٠ تموز ١٩٩٣ م

د. محمد درنيقة

(١) السيوطي، أربعون حديثاً، ص ٨٣. أخرجه الطبراني في الأوسط.

(٢) را: حلاق، الجهاد والتغيير، ص ٧.

(٣) عزام، عبر وبصائر، ص ١٣.

الأعلام المجاهدون

١ ـ إبراهيم بن أدهم (سلطان الزاهدين)

حياته تشبه إلى حد بعيد حياة بوذا، مؤسس الديانة البوذية. والملاحظ أن هذه الحياة لم تخلُ من قصص كثيرة، ونوادر هي أقرب للأسطورة منها إلى التاريخ.

هو إبراهيم بن أدهم بن منصور بن يزيد بن جابر التميمي العجلي، عربي صريح النسب من بني عجل وهم من بكر بن وائل. كانت أسرته تقطن الكوفة ثم هاجرت إلى خراسان واستقرت في بلخ.

وقد ظن بعض المؤرخين أن والده كان من أمراء بلخ وملوكها، لكن كتب التاريخ لا تدلنا على أن والياً لخراسان أو بلخ إسمه أدهم، في النصف الأول من القرن الثاني الهجري، لذلك فالروايات التي تذكر أن والده كان من ملوك أو أمراء بلخ لا أساس لها من الصحة. لكنه كان من أسرة غنية، لأنه كان يعيش عيشة مترفة، منصرفاً إلى اللهو والفروسية والصيد. وذات مرة، وبينما كان يصطاد، إذ به يسمع هاتفاً يقول: «ليس لذا خُلقت ولا بذا أمرت». وسرعان ما تذكر الآية الكريمة ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون ١١٥].

فاعتبر أن هذا الخطاب نذير من رب العالمين كي يغير مجرى حياته. وبالفعل فقد أقسم بأن يحاول جهده بأن لا يعصي الله تعالى. وسرعان ما تخلى عن حياة اللهو والدعة، ولبس جبة وكساء.

ثم رحل من بلخ إلى نيسا بور حيث أقام تسع سنين، ثم توجه إلى العراق فاجتمع بالإمام أبي حنيفة النعمان (ت ١٥٠ هـ/ ٧٦٧م)، وصحب الأعلام من أمثال سفيان الثوري، والفضيل بن عياض، وأبي يوسف الغسولي، وأسلم بن يزيد الجهني التابعي... فاستفاد منهم، ونهل من مواعظهم، فأقبل على العبادة والتزهد. وعاهد ربه أن لا يكون عالة على أحد، وإن لا يأكل إلا من عمل يده، وعرق جبينه، ورائده في ذلك حديث الرسول ﷺ «ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده».

لذلك بعد مجاورته بمكة المكرمة مدة انتقل إلى الشام طلباً للعلم والرزق الحلال. في الشام أخذ يتنقل بين مدنه: المصيصة، طرطوس، جبلة، صور، مرعش، بيت المقدس، غزة، عسقلان... كان يكسب عيشه من الحصاد أو من حراسة البساتين أو من طحن القمح... يتحرى الحلال لقوله ﷺ: «يا سعد أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة. والذي نفس محمد بيده إن الرجل ليقذف اللقمة الحرام في جوفه ما يتقبل منه أربعين يوماً. وأيما عبد نبت لحمه من السحت والربا فالنار أولى به».

وعندما تصله أجرته كان يتقوّت بقسم منها، ويتصدّق بالباقي على الأرامل والأيتام. لقد كان إبراهيم بن أدهم شديد الورع، مسيطراً على أهوائه وشهواته، ملجماً نفسه التي أصبحت لا تشتهي إلا ما يكون في دائرة الحلال الميسور. وكان يقول: «أشد الجهاد جهاد الهوى. مَن منع نفسه هواها فقد استراح من الدنيا وبلائها، وكان محفوظاً ومعافىً من أذاها». وكانت فلسفته من الحياة تنحصر في البيت التالي:

«اتّخِذِ اللهَ صاحبا   وَدَعِ النَّاسَ جانبا».

لكن ابتعاده عن الناس لم يدفعه لكي يعيش على هامش المجتمع كما يفعل خطأً العديد من المتصوفة، بل إنه جعل ديدنه إفادة الخلق، ومديد المعونة إليهم ما استطاع إلى ذلك سبيلاً. ومن أقواله في هذا المجال «ذهب السخاء والكرم والجود والمواساة. مَنْ لم يواس الناس بماله وطَعامه وشرابه، فليواسهم ببسط الوجه والخُلق الحسن. إياكم أن تكون أموالكم سبباً في أن تتكبروا على فقرائكم أو سبباً في أن لا تميلوا إلى ضعفائكم وألا تنبسطوا إلى مساكينكم».

ثم نادى منادي النضال أن حي على الجهاد، عندما دخل الروم إلى المصيصة، الواقعة بين إنطاكية وبلاد الروم، فوجب القتال على المؤمنين أمام هذا العدوان، فرأى ابن أدهم أن سبحته الآن هي السيف، وأن مسواكه هو الرمح، وأن محرابه هو ميدان المعركة، وأن تراب الملاحم أو دخانها أطيب عند الله من ريح المسك، فخلع ثياب الزاهد، وارتدى ثياب المجاهد، ومضى إلى جنة عرضها السماوات والأرض.

لقد شارك ابن أدهم في معارك المسلمين ضد الروم، براً وبحراً، وأبلى البلاء الحسن، وأظهر من ضروب الشجاعة والبطولة ما أثار إعجاب أقرانه، الأمر الذي شدّ من عزائمهم ورفع روحهم المعنوية.

عن أشعث بن شعبة قال: «غزونا غزوة ومعنا إبراهيم بن أدهم، فأصابتنا مخمصة في أنفسنا وفي دوابنا، فسمع أهل المصيصة بذلك فبعثوا بالبغال عليها الزاد إلى الدرب. فسمعت إبراهيم يقول: أي متكلف أخبر الناس بهذا؟». ولم ينزل إبراهيم في المصيصة بل انطلق إلى مكان الجهاد في إنطاكية، مما يدل على أنه كان يجاهد في سبيل الله لا لشهرة، ولا لصيت، ولا لمغنم، أو لعرض من أعراض الدنيا وحطامها.

يروي أحمد بن بكار أنه غزا مع ابن أدهم غزاتين، كل واحدة أشد من الأخرى... غزاة عباس الإنطاكي، وغزاة محكاف، فلم يأخذ سهماً ولا نفلاً. وكان لا يأكل من متاع الروم، فبينما يأكل رفاقه العسل والدجاج والأطايب، كان يأكل مما حمل معه. ويقول طعامكم حلال ولكنني أزهد فيه.

وكان خلال المعارك يكثر من الصوم ومن ذكر الله تعالى. وغزا على برذون (دابة) ثمنه دينار. وكان لو أعطيته فرساً من ذهب أو من فضة ما كان يقبله، ولا يقبل شربة من ماء.

وفي عكا، كان إبراهيم بن أدهم يرابط على سور المدينة حارساً خلال الليل؛ ولكنه كان طوال الليل يذكر الله تعالى، كما يفعل المرابطون المجاهدون. وكان لا يحرس ليلة الجمعة، فلما سئل عن سبب ذلك أجاب: «إن الناس يرغبون في فضل الله ليلة الجمعة فيحرسون أنفسهم، فإذا حرسوا أنفسهم نمنا، وإذا ناموا حرسناهم».

وفي إحدى الغزوات البحرية، هبت الريح وهاجت الأمواج، فبكى الناس وضجوا، وتوجهوا إلى ابن أدهم فوجدوه نائماً في ناحية السفينة، وقد لف رأسه بكساء. فقالوا له: يا أبا إسحاق أما ترى ما الناس فيه؟ فقال: اللهم قد أريتنا قدرتك فأرنا عفوك. فهدأت العاصفة. ثم دعا ربه: «اللهم احرسنا بعينك التي لا تنام، واكنفنا بركنك الذي لا يرام، وارحمنا بقدرتك علينا، ولا نهلك وأنت رجاؤنا».

وفي غزواته كان يهتم بخدمة رفاقه ومعاونتهم، كما كان يختص بالأذان فيهم.

وفي عام ١٦١هـ/ ٧٧٧م شارك في معركة بحرية ضد الروم حيث استشهد. ومما يُروى أنه، وهو بين الحياة والموت، حمله رفاقه المجاهدون إلى الشاطىء، قرب مدينة جبلة على ساحل الشام، فقال لمن حوله: «أوْ تروا لي قوسي» أي أعدوها لأستعملها في الرمي. وبعد إلحاحه استجابوا لطلبه، وبصعوبة مد ابن أدهم يده فتناول القوس وصوبها نحو العدو، ثم لفظ نفسه الأخير، وفي يده سلاحه، فهو يريد أن يلقى ربه على هيئة المجاهدين.

وقد إختلف الذين أرّخوا حياته فيما بينهم، في مكان دفنه، فبعضهم يقول إنه استشهد عام ١٦٢هـ/ ٧٧٨م ودفن في إحدى جزر البحر المتوسط. وآخرون يقولون بأنه دفن بعد استشهاده في صور. لكن معظمهم يرون بأنه قد دفن بمدينة جبلة حيث بُني بالقرب من ضريحه مسجد. وفي عهد المماليك والعثمانيين أوقف رجال الخير أوقافاً كبيرة لصالح المزار والمسجد. وفي عام ١٣٤٩هـ/ ١٩٣٠م تبدد هذا الوقف.

وتجدر الإشارة إلى أن الصوفية المعجبين بابن أدهم، أنشأوا، في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي طريقة صوفية تحمل إسم الأدهمية، نسبة إلى الزاهد أبراهيم بن أدهم. وكانت لهذه الطريقة زوايا في المدن العثمانية، وكانت كبراها في بيت المقدس التي ظلت تعمل بنشاط حتى عام ١٣٣٦هـ/ ١٩١٧م.

من الشعر المنسوب إليه بيتان في المحبة الإلهية:

«تركتُ الخَلقَ طراً في رضاكا ... وأيتَمْتُ العيالَ لكي أراكا
فلو قَطَّعتني في الحُبِ إرَباً ... لَمَا حَنَّ الفؤادُ إلى سواكا».

لقد أعطى ابن أدهم المثل الطيب للمجاهدين الزاهدين الذين يضحون بالغالي والنفيس إعلاء لكلمة الله تعالى، وطلباً لرضاه وحده «إلهي أنت مقصودي ورضاك مطلوبي»[١].

٢ ـ إبراهيم الفزاري

كان معاصراً للزاهد ابن أدهم (ت ١٦١هـ/ ٧٧٧م) ورفيقه في الزهد والجهاد. وكانت له صلات بالخليفة العباسي هرون الرشيد. اشتهر الفزاري بمهاجمته لأهل الزيغ والبدعة: أتى رجل إلى المصيصة وقال بإنكار القدر، فأمره بالرحيل عن المدينة. وكان جهاده خالصاً لوجه الله تعالى قال: «إن من الناس مَنْ يحب الثناء عليه وما يساوي عند الله جناح بعوضة».

وكان في جهاده يروي ويحقق الحديث النبوي الشريف: «يا أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، فإذا لقيتم العدو فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف». ويهوّن القتال على رفاقه ذاكراً لهم الأحاديث النبوية

(١) را: ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، ٤/ ١٩، تحقيق إبراهيم صالح (دمشق ١٩٨٤)؛ محمود، إبراهيم بن أدهم، ص ٤١ ـ ١٥٣؛ أبو نعيم الأصفهاني، حلية الأولياء (بيروت ١٩٨٠) ٧/ ٣٦٨ ـ ٣٨٩؛ ابن الملقن، طبقات الأولياء، تحقيق شريبة (بيروت ١٩٨٦) ص ٦؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان (بيروت ١٩٧٧) ١/ ٣٢؛ خير الدين الزركلي، الأعلام (بيروت ١٩٧٩) ١/ ٣١؛ يوسف النبهاني، جامع كرامات الأولياء (بيروت ١٩٨٣) ١/ ٣٨٨؛ عبد الرحمن بدوي، تاريخ التصوف الإسلامي (الكويت ١٩٧٨) ص ٢١٨ ـ ٢٢٣؛ البالي، نهر الذهب، ٣/ ٦٣؛ عبد الله اليافعي، مرآة الجنان (بيروت ١٩٧٠) ١/ ٣٤٩؛ ابن أبي الدنيا، كتاب مجابي الدعوة، (بيروت ١٩٨٤) ص ٩٢ ـ ٩٣؛ محمد غلاب التنسك الإسلامي (القاهرة ١٩٧٠) ص ٩١؛ ابن كثير، البداية والنهاية، تحقيق أحمد أبو ملحم (بيروت ١٩٨٧) ١٠/ ١٤٨؛ عطية الله، القاموس الإسلامي، ١/ ٩؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب (بيروت ١٩٧٩) ١/ ٢٥٦؛ الشنتناوي، دائرة المعارف الإسلامية، ١/ ٣٣؛ أحمد الشرباصي، فدائيون في تاريخ الإسلام (بيروت ١٩٧٠) ص ٢٧٧ ـ ٢٨١؛ عمر تدمري، لبنان من قيام الدولة العباسية حتى سقوط الدولة الإخشيدية (طرابلس ١٩٩٢) ص ١٦٩ ـ ١٧٣؛ عبد الكريم القشيري، الرسالة القشيرية (القاهرة ١٩٥٩) ص ٩ ـ ١٠؛ أبو عبد الرحمن السلمي، طبقات الصوفية، تحقيق نور الدين شريبة (حلب ١٩٨٦) ص ٢٧ ـ ٣٨؛ عبد الوهاب الشعراني، الطبقات الكبرى (بيروت المكتبة الشعبية) ١/ ٦٩ ـ ٧٠؛ محمد الكتبي، فوات الوفيات، تحقيق إحسان عباس (بيروت دار صادر) ١/ ١٣ ـ ١٤.

التي تبين أن الموت قتلاً أمر سهل: «ما يجد الشهيد من القتل إلا كما يجد أحدكم القرصة يقرصها».

وكان يمنع أصحابه المجاهدين من قتل ذرية الأعداء، لما ورد في الحديث النبوي: «ألا لا تقتلوا الذرية. فقال رجل: يا رسول الله أوليس إنما هم أولاد المشركين؟ فقال ﷺ: أوليس خياركم أولاد المشركين».

أسند الفزاري الحديث عن عدة محدثين منهم: عطاء بن السائب، عبد الملك ابن عمير، إسماعيل بن أبي خالد، الأعمش، يحيى بن سعيد، وموسى بن عقبة، وهشام بن عروة، وسهل بن أبي صالح، يونس بن عبيد وإبان بن أبي عياش وغيرهم.

كما حدَّث عنه عدد من الأئمة مثل الأوزاعي وسفيان الثوري[1].

٣ ـ أبو الغيث المعروف بالقشَّاش التونسي

ولد بتونس، وبها نشأ. ولما شبّ ساح في البلاد طلباً للعلم والأدب؛ فمهر في علوم التفسير والحديث والأصول والفروع. وصار في علم الأدب شيخ الفن. ثم حصل له جذب إلهي فساح في أطراف جبل الزعفران بتونس، وانتهى به المطاف إلى سلوك طريق التصوف على الشيخ محمد الجديدي. وبعد وفاة شيخه، انتقل إلى تونس حيث تتلمذ على يديه كثير من رجالاتها، فكان يلقي عليهم دروساً في العلوم الشرعية، ثم يعقدون حلقة الذكر. وكان يمضي معظم لياليه معهم في ذكر وتسبيح. ثم خرج لأداء فريضة الحج فأدى المناسك وجاور بالمدينة المنورة زهاء سنة، عاد بعدها إلى وطنه تونس حيث كثر أتباعه ومريدوه، فخاف علماء البلد من استفحال أمره، فشكوه إلى حاكم تونس رمضان باشا، لكن ذلك لم يفدهم شيئاً، فتركوه وشأنه. كان أبو الغيث يمضي أوقاته بين حلقة الدرس والسياحة في الجبال. ثم انصرف إلى بناء المساجد والمدارس والزوايا، ووقف عليها أوقافاً عظيمة. كما عين للمقيمين والمسافرين نفقات. ولعل عمله العظيم

(١) را: أبو نعيم الأصفهاني، حلية الأولياء، ٨/ ٢٥٣ ـ ٢٦٥.

الذي استحق به كل فخر وإعزاز، هو بذله الغالي والنفيس في سبيل فكاك أسرى المسلمين الذين كانوا بيد الإفرنج. وفي ذلك يقول شيخ الإسلام يحيى بن زكريا:

«أبو الغيثِ غيثُ المستغيثينَ كلِّهم   بهمَّتـه نـال الـورى فـكَّ أسـرهـم
فهمَّتُهُ العلياءُ غيثٌ به ارتوى   رياضُ أمانِ اللائذينَ بأسرهم».

كانت وفاته في أوائل رجب ١٠٣١هـ/ ١٦٢١م وقد دفن بزاويته المعروفة باسمه[1].

٤ ـ أحمد بن حسين الشهير بابن رسلان

ولد بالرملة بفلسطين عام ٧٧٥هـ/ ١٣٧٣م ونشأ بها، فحفظ القرآن وأقبل على المطالعة، وتحصيل العلوم: اللغة والنحو والفرائض والحساب. درّس في المدرسة الخاصكية، ثم انتقل إلى بيت المقدس، وأقبل على التصوف فسلك على عدة مشايخ: محمد القادري ومحمد القرمي وعبد الله بن البسطامي. وبرع في الفقه وأصوله والعربية والحديث والتفسير والكلام مع حرصه على سائر أنواع الطاعات من صلاة وصيام وتهجُّد ومرابطة مع تلاميذه على جانب البحر لمقاومة أي غزو صليبي لسواحل فلسطين.

بنى الشيخ أحمد مسجداً في الرملة وزاوية بالقدس ورباطاً في ثغر يافا على ساحل البحر، وكان كثير المرابطة فيه مع تلاميذه.

توفي برمضان عام ٨٤٤هـ/ ١٤٤٠م ودفن ببيت المقدس. له عدة شروحات ونظم في علم القراءات. من نظمه:

«دواءُ قلبِكَ خمسٌ عند قسوتِهِ   فادأبْ عليها تفزْ بالخيرِ والظَّفَرِ
خلاءُ بطنٍ وقرآنٌ تدبره   كذا تضرُّعُ باكٍ ساعةَ السَّحَرِ
ثم التهجُّدُ جنحَ الليلِ أوسطه   وأنْ تجالسَ أهلَ الخيرِ والخيرِ»[2].

(١) را: محمد المحبي، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، السفر الثاني، تحقيق ليلى الصباغ (دمشق ١٩٨٣) ص ٢٣٧ ـ ٢٤٣.

(٢) را: محمد السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (بيروت مكتبة الحياة) ١/ ٢٨٢ ـ ٢٨٨؛ الزركلي، الأعلام، ١/ ١١٧؛ عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين (بيروت مكتبة المثنى) ١/ ٢٠٤.

٥ ـ أحمد الشريف السنوسي

حفيد الشيخ محمد بن علي السنوسي مؤسس الدعوة السنوسية. ولد بالجغبوب بليبيا ٢٧ شوال ١٢٩٠هـ/ ١٨٧٣م. حفظ القرآن ودرس أصول الدين والفقه في زاوية الجغبوب.

ولما توفي عمه المهدي ولّاه مشايخ السنوسية شؤون الدعوة وقيادة المجاهدين لقتال الفرنسيين في تشاد والنيجر ومالي وجنوب الجزائر. وقد استمر الشيخ أحمد يقارع الفرنسيين بكل شجاعة وإخلاص إلى أن هاجم الإيطاليون ليبيا عام ١٣٥٠هـ/ ١٩١١م فسحب قواته وتوجه شمالاً لمجابهتهم، فسارت برقة وطرابلس الغرب تحت لوائه. ولما عقد الصلح بين إيطاليا والعثمانيين حمل الشيخ أحمد عبء الجهاد وحده.

ولما نشبت الحرب العالمية الأولى عينه السلطان العثماني نائباً له في شمال إفريقيا. ودفعه الأتراك لمهاجمة الإنكليز في مصر، ففعل ذلك ووصل إلى مشارف الإسكندرية، لكنه لم يتمكن من تحقيق النصر لنقص الذخيرة والتموين ووسائل النقل، فانسحب إلى الجغبوب، ثم انتقل إلى استنبول حيث نال رتبة الوزارة. ولما قامت حركة مصطفى كمال إتهم الشيخ أحمد بالإتصال ببعض آل عثمان، بعد زوال دولتهم. وطلب إليه مغادرة تركيا، فقصد دمشق التي كانت يومذاك خاضعة للإحتلال الفرنسي، فلم يأذن له الفرنسيون بالإقامة فرحل إلى الحجاز حيث نزل في ضيافة الملك عبد العزيز آل سعود.

توفي الشيخ أحمد بالمدينة تاركاً عدة مؤلفات:

ـ الأنوار القدسية ـ الفيوضات الربانية في الطريقة السنوسية ـ الدر الفريد الوهاج بالرحلة المنيرة من جغبوب إلى التاج ـ تراجم مشايخه ومشاهير من اجتمع بهم من أهل المغرب[١].

(١) را: القشاط، جهاد الليبيين، ص ٢١٥ ـ ٢١٧؛ الزركلي، الأعلام ١/ ١٣٥؛ كحالة، معجم المؤلفين ١/ ٢٤٣.

٦ ـ أحمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الجبار الشهير بأبي ثور

وسبب تسميته بأبي ثور أنه حضر فتح بيت المقدس، وكان يركب ثوراً ويقاتل عليه. كان هذا الشيخ الزاهد يقيم بدير من بناء الروم، كان يعرف قديماً بدير مار قيوس، بالقرب من باب الخليل. فلما دُعي المسلمون للجهاد كان أحمد في طليعة الملبين للنداء، ولما لم يجد من دابة غير ثوره، إمتطاه وانطلق يقاتل الصليبيين.

وبعد فتح بيت المقدس على يد السلطان صلاح الدين الأيوبي، وقف الأيوبيون هذه القرية «دير مار قيوس» للشيخ أحمد عام ٥٩٤هـ/ ١١٩٧م فأصبحت تعرف باسم «دير أبي ثور».

ظل الشيخ أحمد بقريته عابداً زاهداً مرابطاً حتى وفاته[١].

٧ ـ أحمد بن عرفان الشهيد الهندي

المتوفي عام ١٢٤٦هـ/ ١٨٣٠م. لقد قام هذا الزاهد بالدعوة إلى الدين الخالص، والحض على الجهاد والنضال، والتضحية في سبيل الله، ودعا إلى تأسيس حكومة شرعية تسير على منهاج الخلافة الراشدة. كما ربّى ألوف الهنود على علو الهمة والحمية الدينية، وعلى الصلابة في الدين، وعلى الإستقامة على الشريعة وحب الجهاد. وقد عبرَّ عن تأثير هذا البطل مؤرخ الهند الأمير صديق حسن خان بقوله: «ولم نعرف ولم نخبر الناس بوجود رجل يضارعه في كماله، في الماضي القريب، في قطر من أقطار العالم. والفوائد التي حصلت للخلق من هذه الجماعة المنصورة لا يبلغ معشارها فوائد مصلحين آخرين من شيوخ الأرض وعلمائها».

وكان هذا المجاهد لا يضيِّع فرصة لخدمة الناس. وهذا ما درج عليه تلاميذه الذين كانوا يقدمون خدماتهم للمحتاجين دون أن تكون لهم بهم معرفة أو صلة،

(١) را: يوسف النبهاني، جامع كرامات الأولياء، ١/ ٤٩٥.

ودون أن يطلبوا أجراً أو ثواباً من الناس؛ لأنهم يقومون بعملهم خالصاً لوجه الله سبحانه وتعالى. وقد حاربت السلطات الإنجليزية، الحاكمة في الهند، المجاهدين من جماعة الشيخ أحمد بن عرفان، حتى أنها لاحقتهم إلى معاقلهم في الجبال في حدود الهند الشمالية الغربية، وأنفقت في سبيل ذلك نفقات باهظة، وتحملت الخسائر الجسيمة، الأمر الذي دفعها إلى إلقاء القبض، ومحاكمة كل من اشتبه باتصاله بهذه الجماعة، وفي طليعة هؤلاء يحيى علي ومحمد جعفر التهانيسري، ومحمد شفيع اللاهوري، وقد حكمت عليهم بالإعدام شنقاً. لكن هذا الحكم لم يرعب الأبطال الذين أعلنوا عن رضاء نفوسهم بلقاء ربهم، لذلك قررت المحكمة الإنجليزية تبديل حكم الإعدام بالنفي المؤبد إلى جزائر سيلان.

تصوفه ونضاله واستشهاده... لم تحل بينه وبين التأليف والتصنيف؛ له في التصوف «الصراط المستقيم»[1].

٨ ـ أحمد بن عمر بن محمد الرازي

الشهير بنجم الدين الكُبري. كان شيخ خوارزم في عصره، ومرشد الصوفية فيها. طاف في البلاد الإسلامية وسمع الحديث، ثم عاد إلى بلدته. كان ملجأ للغرباء عظيم الجاه، لا يخاف في الله لومة لائم. فسّر القرآن الكريم على طريقة الصوفية في ١٢ مجلداً، وصنّف عدة كتب:

ـ عين الحياة ـ علم السلوك ـ أقرب الطرق إلى الله تعالى ـ فوائح الجمال وفواتح الجلال.

استشهد على باب خوارزم في حرب التتار عام ٦١٨هـ/ ١٢٢١م[2].

(١) را: الندوي، المسلمون في الهند، ص ٤٣، ٥٥، ٩٢، ١٤٣ ـ ١٤٤.
(٢) را: الزركلي، الأعلام، ١/١٨٥؛ كحالة معجم ٢/٣٤.

٩ ـ أحمد بن محمد بن غنيم الحارون العسل

ولد بدمشق عام ١٣١٥هـ/ ١٩٠٠م في منطقة الصالحية بجانب مسجد الحنابلة، في بيت من بيوت الصلاح، فأبوه ينتسب لأبي العباس أحمد الرفاعي الحسيني، مؤسس الطريقة الرفاعية، وأمه تنتسب لبني شيبة، حُجّاب الكعبة في الجاهلية والإسلام. وفي السابعة من عمره توفي والده، فتعهدته والدته. وتنقّل بين عدة كتاتيب كانت تدّرس القرآن الكريم. ولما بلغ الثانية عشرة اضطر إلى ترك الكتاتيب ليعمل في جبل قاسيون حجاراً (قطع الحجارة) حتى يقتات مع والدته وإخوته. وظل في عمله هذا سنين عديدة كان خلالها يتابع البحث والدرس، ويحافظ على تلاوة القرآن، ويؤدي الطاعات والعبادات على أكمل وجه. ثم مال إلى التصوف فقطع عقبات الطريق من أحوال ومقامات. وتمكن من الجمع بين الشريعة والحقيقة «إن الشريعة بؤبؤة العين، وإن الحقيقة نورها، ولا سبيل للعين أن ترى بدون نور».

وفي عام ١٣٣٦هـ/ ١٩١٧م استدعي للخدمة العسكرية، فسافر إلى حلب للتدريب في ثكنة الشيخ يبرق. وقد احتل في هذه الثكنة مكانة مرموقة حيث أصبح إمام ومرشد الجنود، فكان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويوجه الجنود إلى ما فيه الخير في الدنيا والآخرة. وكان هؤلاء يشتّقون آذانهم بالإستماع إلى تلاوته للقرآن، وإنشاده للقصائد المرغِّبة في الزهد والتصوف. وقد بلغ من تأثيره على الجند أن الكثيرين من المنحرفين منهم كانوا يتوبون، عاقدين العزم على ترك الذنوب والآثام، مقبلين بكنه الهمة على أداء الفرائض، والقيام بالنوافل؛ فأقامه الجند إماماً لهم.

وبعد أن أنهى مدة التدريب انتقل مع الجنود العثمانيين إلى جبهة فلسطين حيث أبلى البلاء الحسن، فكان على رأس قوة من رفاقه يخوض غمار الحرب، ويشتبك مع الأعداء ويحقق الإنتصارات. وعلى أثر انتهاء الحرب العالمية الأولى عاد الشيخ أحمد إلى دمشق حيث التحق بصناعته الأصلية في قطع الأحجار بجبل قاسيون، حتى يؤمن لقمة العيش له ولوالدته ولفقراء الحي، دون أن ينسى هدفه الأسمى في تحقيق الرسالة التي جاء بها النبي محمد ﷺ، والتي نقلت العالم من

الضلالة إلى دين الحق، ومن الجهالة إلى الهدى. وفي عام ١٣٤٦هـ/ ١٩٢٧م تزوج. ثم حبب إليه الإتصال بالعلماء والصالحين الدمشقيين: أمين الخربوطلي، أمين كفتارو النقشبندي، توفيق الأيوبي، محمود أبو الشامات الشاذلي، بدر الدين الحسني المحدث، إبراهيم الغلاييني النقشبندي، محمد شكري الأسطواني المفتي، محمد الهاشمي الشاذلي، عزيز الخاني، عطا الكسم... وكان هؤلاء يجلّونه ويقدّرونه. في تلك الأثناء كانت فرنسا قد احتلت سورية، وفرضت عليها حكماً عسكرياً، وعمد مفوضوها إلى كبت الحريات، وكمّ أفواه الصحف الوطنية، وصبغ التعليم بالطابع الفرنسي، ووضع الزعماء الوطنيين تحت المراقبة، وإطلاق يد التجار الفرنسيين يمتصون ثروات البلاد وخيراتها، الأمر الذي حدا بالسوريين إلى النضال والإستماتة في سبيل نيل حريتهم، وتحقيق إستقلالهم عن الفرنسيين.

ولما طلب وفد من زعماء الدروز مقابلة الجنرال سراي، المفوض السامي الفرنسي، لينصفهم من حاكمهم الفرنسي العاتي، رفض الجنرال استقبالهم، فانطلقت شرارة الثورة السورية الكبرى في جبل العرب في تموز ١٣٤٤هـ/ ١٩٢٥م ثم ما لبثت أن امتدت إلى دمشق وحمص وحماه وجبل الزاوية، كما وصلت إلى حدود لبنان.

وشارك الشيخ أحمد الثوار الوطنيين جهادهم ضد الاستعمار الفرنسي، فقد أمد الثورة بالمال والسلاح، وكانت له مواقف مأثورة حينما أسهم مع رفاقه في القتال ضد القوات الفرنسية التي أرادت عبور جسر تورا، وصمد ولم ينهزم رغم أنه أصيب في ساعده. كما شارك في القتال على طريق دمشق لبنان ليقطع الإمدادات التي تأتي للفرنسيين. كما استطاع مع أبناء عكاش من نسف الخط الحديدي بين دمر والفيجة.

وفي أواخر عمره حببت إليه الخلوة حيث كان يطالع الكتب الدينية والكونية، وكان يجمع منها ويؤلف فيها. وكانت كتاباته تتميز بالدقة العلمية، وتفهُّم أسرار الشريعة والحقيقة، إضافة إلى التحليل الدقيق. كل ذلك بلغةٍ سهلة مفهومة؛ وكان يمانع في نشرها في حياته.

لقد تاب على يديه الكثير من الضالين ومن قطاع الطرق ومن أصحاب الترف

واللهو. وتخرّج بصحبته عدد كبير من العلماء كالأستاذ صلاح الدين المنجد ومحمود غراب ومحمد الحمصي... وأثنى عليه كبار العلماء والمشايخ: الدكتور مصطفى السباعي، قاسم القيسي مفتي بغداد، حسن مأمون مفتي مصر وشيخ الجامع الأزهر، ياسين الموقت، محمد سعيد البرهاني، محمد أمين الزعبي، يحيى الصباغ، الدكتور أمين شيخ بكري أحد أساتذة الجامعة السورية... وقد ذكروا له الكثير من الكرامات.

توفي الشيخ أحمد بدمشق عام ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٢م، ودفن في المكان الذي عسكر فيه خالد بن الوليد، ورابط فيه الشيخ أرسلان الدمشقي.

وبذا دخل الشيخ أحمد التاريخ من بابه العريض: ديناً وعلماً وثقافةً ووعظاً وإرشاداً وتدريساً وجهاداً وقتالاً لإعلاء كلمة الحق[1].

١٠ ـ أحمد الهيبة بن مصطفى ماء العينين

القلقمي الصحراوي. ولد عام ١٢٩٤هـ/ ١٨٧٧م في الصمارة، وهي دار أنشأها والده في الصحراء. لازم أحمد أباه في تنقله، وأخذ عنه وعن عدة مشايخ آخرين، فاشتهر بالفقه والتصوف والأدب. وبعد وفاة والده بمدينة تزنيت من سوس المغرب عام ١٣٢٨هـ/ ١٩١٠م خلفه أحمد في مناصبه الدينية. ولما عمّت شرور الفرنسيين، واستبدوا بالبلاد، وظلموا العباد، إجتمع علماء سوس بتزنيت في رجب ١٣٣٠هـ/ نيسان ١٩١٤م وانتخبوا الشيخ أحمد أميراً عليهم وولّوه أمر جهاد الإحتلال الفرنسي، ودعوا القبائل لمبايعته، فلم يتخلف منهم أحد. كما أتته رسائل المبايعة من الحواضر.

عند ذلك كوّن أحمد جيشاً كبيراً قصد به مدينة مراكش فدخلها في رمضان ١٣٣٠هـ/ ١٩١١م برضا أهلها. وسرعان ما جهز الفرنسيون لقتاله جيشاً من المغاربة، أرسلوه من الدار البيضاء. فلما كان هذا الجيش على مقربة من مراكش

(١) را: حصرية، الشيخ أرسلان، ص ١٦٣ ـ ١٨٠؛ منير الخوري، تاريخ حمص ج ٢ (حمص ١٩٨٤)ص ٤٣٧؛ دائرة المعارف الإسلامية ١١١/١٣؛ محمد مطيع الحافظ ونزار أباظة، تاريخ علماء دمشق في القرن الرابع عشر الهجري (دمشق ١٩٨٦) ٢/ ٧٥٣ ـ ٧٦٢.

إنقض عليه رجال الهيبة ومزقوه شر ممزق. لكن الفرنسيين أعادوا الكرة مرات عديدة حتى تمكنوا من هزيمته، فالتجأ إلى تارودانت وتحصَّن بها. ولما هوجم خرج إلى موضع يسمى تامكر من جبال هشتوكة. وجَدَّ أعوان الإحتلال في مطاردته، فهرب إلى بعقيلة وتوغل في جبال جزولة. ثم استقر في موضع منها اسمه كردوس حيث لبى دعوته لمقاومة الإحتلال كل أهالي تلك الجبال بالإضافة إلى آية باعمران والأخصاص وتندوف من جهة الصحراء. ولاحقه جيش الإحتلال فثبت له أصحاب الهيبة وفتكوا بالمغيرين. وتجددت بذلك قوته. لكن الفرنسيين حشدوا له هذه المرة جوعاً غفيرة من أهل المغرب والجزائر والسنغال والسودان يقودهم الجنرال غورو بمدافع وطائرات ورشاشات، عسكرت في تزنيت وضواحيها. وتجددت المعارك. لكن رجال الهيبة انقسموا على أنفسهم فقتل عدد كبير من رجال القبائل وزعمائها. ومرض الهيبة أياماً قليلة كانت ختام حياته.

توفي في بكردوس عام ١٣٣٧هـ/ ١٩١٩م. «لقد أبى الهيبة إباءً كلياً أن ينقاد إلى الإحتلال بعد ما حاول رجال الإحتلال ذلك بكل حيلة. وقد أطمعوه في أن يكون خليفة لمولاي يوسف، على كل سوس، فأبى. وأطمعوه في المال والأمن والراحة فأبى أيضاً»[1].

١١ ـ أحمد بن يوسف الراشدي الملياني

من مشايخ الصوفية بمدينة مليانة في غرب الجزائر. ولد في قلعة بني راشد في الثلث الثاني من القرن الخامس عشر الميلادي. أخذ التصوف عن الشيخ أحمد زروق البرنوسي، وسلك الطريقة الزروقية الشاذلية في بجاية. قام أحمد بدور سياسي وجهادي هام وذلك عندما تصدى مع أتباعه للهجوم الأسباني عام ٩١٤هـ/ ١٥٠٩م على وهران، فقد كان مدافعاً عن بني عبد الوادي، ملوك تلمسان. ثم عندما قاوم التدخل العثماني عام ٩٢٢هـ/ ١٥١٧م. وكان كثير الترحال بين المغرب والجزائر، ينشر طريقته الصوفية، ويدعو إلى الجهاد في سبيل

(١) را: الزركلي، الأعلام ١/ ٢٦٥ ـ ٢٦٦.

الله، فكثر أتباعه في القطرين. وقد تسمى تلاميذه بالمغرب بعدة أسماء منها: العكاكرة، طائفة الشراقة، الطائفة اليوسفية.

توفي بمليانة بالجزائر عام ٩٢٧هـ/ ١٥٢٤م. ويعتبر من أهم رجالات التصوف والجهاد في الجزائر[1].

١٢ ـ أرسلان بن يعقوب الدمشقي

كلمة أرسلان كلمة تركية معناها الأسد. وقد تحذف الألف من أول أرسلان للتخفيف فتصبح رسلان وهو الإسم الشائع في الشام.

ولد في قلعة جعبر، على شاطىء الفرات، بجوار قلعة نجم، في ناحية صربين التابعة لعين العرب. وقد كانت من ثغور المسلمين الداخلة بينهم وبين الروم. لم يرشح شيء عن تاريخ ولادته بالضبط، كما لم يعرف الكثير عن نشأته الأولى؛ اللهم إلا مدافعته، في سن العشرين، عن قلعة جعبر، ثم انتقاله إلى دمشق للمدافعة عنها ضد غارات الصليبيين. في الوقت الذي وصل فيه أرسلان إلى دمشق، كانت هذه المدينة المسلمة تعاني من استبداد الحكام وجورهم، ومن الوباء، ومن ارتفاع الأسعار. . . بالإضافة إلى الصليبيين الذين وصلوا إلى تخومها وهددوها بالإجتياح. ونتيجة لهذه الظروف الصعبة، والأحوال السيئة، تركها قسم كبير من أهاليها، هرباً من المآسي والفظائع.

وفي دمشق عمل الشيخ أرسلان بنشر الخشب، كما أقبل على طلب العلم. وكان يقسم أجرته إلى ثلاثة أقسام: قسم لنفقته، وقسم يتصدق به، وقسم لكسوته ولبقية مصالحه. وتلقى العلم على الشيخ أبي عامر المؤدب في مسجد صغير داخل باب توما. وقام الشيخ أرسلان بحفر بئر لهذا المسجد الذي ما لبث أن وسعه السلطان الشهيد نور الدين زنكي، وبنى له منارة وخصه ببعض الأوقاف. وقد عرف هذا المكان بمقام الشيخ أرسلان.

(١) را: محمد بن الطيب القادري، التقاط الدرر ومستفاد المواعظ والعبر من أخبار وأعيان المائة الحادية والثانية عشر، تحقيق هاشم العلوي القاسمي (بيروت ١٩٨٣) حاشية ص ٣٤؛ الزركلي، الأعلام، ١/ ٢٧٥.

وبعد وفاة الشيخ أبي عامر انتقل أرسلان ألى مسجد درب الحجر، فأقام في الجانب الشرقي يتعبَّد ويلتقي بأصحابه. ثم خرج ثانية إلى ظاهر باب توما، إلى مسجد الصحابي خالد بن الوليد (ض) وهو المسجد الذي أقيم على مكان خيمة خالد بن الوليد إبان فتحه لمدينة دمشق. وقد حوّل الشيخ هذا المسجد إلى رباط ليتمكن من تربية الكثيرين من الصوفية المجاهدين، ويتمكن من رصد حركات الصليبيين الذين كانوا قد استولوا على الكثير من القلاع والحصون والمدن الشامية، مرتكبين العديد من المجازر التي يندى لها جبين البشرية، وتقشعر لهولها الجلود. فكان هذا الرباط بمثابة مخفر يأوي إليه حرس الحدود الذين يطوفون حول المدينة، بعد إغلاق أبوابها، حتى لا يباغتها العدو. ولما كانت معنويات هؤلاء الحرس تحتاج إلى تغذية من جهة، وإلى إزالة الملل والضجر من جهة ثانية، حتى يكونوا دائماً مستعدين للقاء العدو وبذل المهج رخيصة في الذود عن الشام، قام الشيخ أرسلان بتربيتهم تربية صوفية جهادية، حببت إليهم الموت في سبيل الله والقتال إبتغاء لمرضاته سبحانه. كما كان يدعو الأهالي إلى دين الحق وإلى إعلاء كلمة لا إله إلا الله. وقد ساعده أمراء دمشق، وكان السلطان نور الدين يحبه كثيراً ويؤمن بصلاحه وتقواه.

ولما لاحظ الصليبيون يقظة المدافعين عن دمشق، حاولوا دخول المدينة، عن طريق الخدعة والخيانة حيث اتفقوا مع بعض ضعاف النفوس أمثال الوزير المزدقاني، الذي أقدم على ارتكاب خيانة عظمى عندما كاتب الصليبيين على أن يسلمهم دمشق، وتقرر أن يكون الموعد يوم الجمعة ليتم قتل المسلمين في المساجد؛ لكن يقظة أمير دمشق والمجاهدين وعلى رأسهم الشيخ أرسلان، أفشلت هذه المؤامرة وقتل الوزير الخائن سراً؛ ثم تظاهر المجاهدون بالغفلة والإنشغال حتى ظفروا بالصليبيين فأعملوا فيهم السيف وضرب الرقاب، فلم ينج منهم إلا القليل. وكان الشيخ في مقدمة الذين صدوا الصليبيين. وكانت جماهير الدمشقيين تجأر بهذا القول: «الشيخ أرسلان حامي البرو الشام».

وظل الشيخ أرسلان يرشد ويربي ويناضل ويجاهد حتى وافاه الأجل عام ٥٤١هـ/ ١١٤٦م بدمشق، ودفن بتربته المعروفة ظاهر باب توما خارج دمشق.

من تلاميذه: أبو الفرج عبد الرحمن الشهير بابن الحنبلي، أبو الخير الحمصي، أحمد بن محمود الكردي الشيباني، إبراهيم بن محمود البعلي المقري.

له رسالة في التوحيد، شرحها عبد الغني النابلسي.[1]

١٣ ـ البراني الساعدي

أصله من قبيلة زوية. أسس زاوية شرقي السلوم بأرض مصر، عرفت باسمه إلى الآن «سيدي البراني» ثم انتقل إلى الجنوب، حيث قاد الجهاد في الصحراء الكبرى، ضد الفرنسيين. وكان من كبار قادة المجاهدين في مناطق كانم وشمال تشاد.

دخل الصحراء الكبرى من منطقة الكفرة بليبيا عام ١٣١٨هـ/ ١٩٠٠م واستطاع أن يؤسس دوراً جهادياً رائداً. وقد تمكن من إلحاق عدة هزائم بالفرنسيين لا سيما في بئر العلالي. واستطاع، بالرغم من استشهاده، أن يصدمهم في عين كلكا عام ١٣٢١هـ/ ١٩٠٣م. وقد اعترف له الأعداء بالبراعة وإجادة التنظيم[2].

١٤ ـ المرابط ألفا يايا

يعتبر اليوم في غينيا مجاهداً بيلياً كبيراً، وبطلاً وطنياً. كما أن النشيد الوطني الغيني يشيد بمآثره.

ولد ألفا يايا عام ١٢٦٧هـ/ ١٨٥٠م، وهو متحدر من زعماء مقاطعة لابه التي

(١) را: حصرية، الشيخ أرسلان، ص ٩ ـ ١٠٢؛ النبهاني، جامع كرامات الأولياء، ٢/ ٧٣ ـ ٧٥؛ اليافعي، مرآة الجنان، ٣/ ٢٢٩؛ عبد القادر بدران، منادمة الأطلال (بيروت ١٩٨٥) ص ٣١٨ ـ ٣١٩؛ عثمان السويدي، زيارات الشام، تحقيق بسام الجابي (دمشق ١٩٨١) ص ٨٧ ـ ٩١؛ الزركلي، الأعلام ١/ ٢٨٨؛ إسماعيل البغدادي، هدية العارفين (بيروت ١٩٨٢) ١/ ٣٦٧؛ كحالة، معجم ٢/ ٢٢٤؛ محمد كرد علي، خطط الشام (بيروت ١٩٨٣) ٢/ ٤؛ الصفدي الوافي بالوفيات ٨/ ٣٤٥ ـ ٣٤٦.

(٢) را: القشاط، جهاد الليبيين، ص ٢٢٢ ـ ٢٢٣.

أصبح زعيمها بالإضافة إلى كادي وغابو. ولكنه وضع في الإقامة الجبرية في داهومي عام ١٣٢٣هـ/ ١٩٠٥م بعد «ظهور روحه الإستقلالية وإثارته الشغب» كما زعم المستعمرون الفرنسيون.

وفي عام ١٣٢٨هـ/ ١٩١٠م أفرجت عنه السلطات الفرنسية فعاد من المنفى، لكن شكوك الإدارة الإستعمارية ما لبثت أن ثارت حوله من جديد فاعتقل ثانية عام ١٣٢٩هـ/ ١٩١١م واقتيد إلى بور اتيان حيث توفي عام ١٣٣١هـ/ ١٩١٢م[1].

١٥ ـ أمادو بامبا

(١٢٦٧ ـ ١٣٤٦هـ/ ١٨٥٠ ـ ١٩٢٧م). وهو حفيد لمعلم مدرسة قرآنية، وابن لمرابط من حاشية لات ديور، ملك كايور بالسنغال. اشتهر الشيخ أمادو بالعلم والتقوى لذلك أقبلت الجموع عليه للنهل من منبعه. وقد قُدِّر عددهم عام ١٣٣١هـ/ ١٩١٢م بخمسمائة طالب متحلقين حول الشيخ، وحوالي سبعين ألفاً من أتباع طريقته الصوفية. ولما رأت الإدارة الفرنسية إقبال الجماهير عليه، وكانت تخاف من أخبار حرب الجهاد أو المهدية، نفته أولاً إلى الغابون (١٣١٣ ـ ١٣٢٠هـ/ ١٨٩٥ ـ ١٩٠٢م) ثم أبعدته إلى موريتانيا (١٣٢١ ـ ١٣٢٥هـ/ ١٩٠٣ ـ ١٩٠٧م) ثم وضعته تحت المراقبة حتى عام ١٣٣١هـ/ ١٩١٢م حين سمحت له بالإقامة في ديوربل حيث توفي في ٩ تموز ١٣٤٦هـ/ ١٩٢٧م[2].

١٦ ـ تاج الدين الرفاعي

شيخ زاوية أم عبيدة الرفاعية. كان دائم التنقل بين العراق وسورية. ولما قام هولاكو، ملك التتار، بتقريب النصارى إليه، مما دفعهم إلى تخريب المساجد والمدارس، وإبطال الأذان وشعائر الإسلام؛ إجتمع أكثر من خمسمائة عالم عند

(١) را: فنسان، الإسلام في إفريقيا السوداء ص ١٤٥.
(٢) را: فنسان، الإسلام في إفريقيا، ص ٣٣٠ ـ ٣٣٣.

الشيخ شمس الدين المستعجل الرفاعي، والد الشيخ تاج الدين، وطلبوا منه مساعدتهم في هذا البلاء، فأرسل أخاه أبا بكر وولده تاج الدين على رأس فرقة من زهاد الرفاعية، فأقاموا الحجة على هولاكو الذي ما لبث أن أعاد للمسلمين نزراً يسيراً من مكانتهم.

وفي عام ٦٩٢هـ/ ١٢٩٢م أرسل الشيخ تاج الدين بعض تلاميذه الرفاعية ليقاتلوا إلى جانب السلطان خليل بن الملك المنصور سيف الدين قلاوون الصالحي، وذلك لاسترجاع ثغر بهسنى. وقد بشرهم الشيخ بفتح هذاالثغر. وبالفعل تم للسلطان الظفر. وقد قام تلاميذ الشيخ بتأسيس زاوية للرفاعية هناك[1].

١٧ ـ حاتم الأصم

صوفي مشهور، اشتهر بالورع والتقشف. كان لا يخاف من قول كلمة الحق عند القضاة والحكام. لما حضر إلى مدينة الرسول ﷺ، ورأى فيها القصور وأفخم الدور. سأل أهل المدينة: مدينة مَنْ هذه؟ فقالوا: مدينة رسول الله ﷺ. فقال لهم: أين قصر الرسول حتى أصلي فيه ركعتين؟ قالوا ما كان له قصر. قال: فهل كان لأصحابه من بعده قصور؟ قالوا: لا. فتلا عليهم قول الله تعالى ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب ٢١] ثم قال لهم: أنتم بِمَنْ تأسيتم. هذه مدينة فرعون وجنوده.

لقد لخص فلسفته في الحياة بهذه الكلمات: «مَنْ ادَّعى ثلاثاً بغير ثلاث فهو كذاب: من ادعى حب الله بغير ورع عن محارمه فهو كذاب. ومن ادعى حب الجنة من غير إنفاق ماله فهو كذاب. ومن ادعى حب النبي ﷺ من غير حب الفقراء فهو كذاب».

وولد حاتم ببلخ وكان مولى للمثنى بن يحيى المحاربي (ت ٢٢٣هـ/ ٨٣٧م). تتلمذ على الشيخ شقيق البلخي وكان من المجاهدين معه. ترك بلخ قاصداً الحج،

(١) را: النبهاني، جامع كرامات، ١/٦١٤ ـ ٦١٥.

فمر ببغداد حيث التقى بالإمام أحمد بن حنبل. يحدثنا الخطيب البغدادي عن هذا اللقاء فيقول: «إن ابن حنبل سأله: يا حاتم فيم التخلص من الناس؟ قال: يا أحمد في ثلاث خصال. قال: وما هي؟ قال: أن تعطيهم مالك ولا تأخذ من مالهم شيئاً، وتقضي حقوقهم ولا تستقضي أحداً منهم حقاً لك، وتحتمل مكروههم ولا تكره أحداً على شيء. فأطرق أحمد ينكث بإصبعه على الأرض ثم رفع رأسه ثم قال: يا حاتم إنها لشديدة. فقال له حاتم: وليتك تسلم وليتك تسلم».

ونظرة حاتم للجهاد نظرة عامة شاملة، وهي النظرة الإسلامية الصادقة للجهاد، إنه يقول: «الجهاد ثلاثة: جهاد في سرك مع الشيطان حتى تكسره، وجهاد في العلانية في أداء الفرائض حتى تؤديها كما أمر الله تعالى، وجهاد ضد أعداء الله لنصره الإسلام».

وقبل أن يخوض الحرب ويشارك في معارك الفتوح، جاهد نفسه، وحارب هواه، وهزم إبليس وجنوده. وفي ذلك يقول: «عدوي الذي إذا كنتُ في طاعة الله أمرني بمعصية الله، فرأيت ذلك إبليس وجنوده، فاتخذتهم عدواً، فوضعت الحرب بيني وبينهم، ووترت قوسي، ووصلت سهمي، فلا أدعه يقربني». عند ذلك دخل المعارك دون خوف أو وجل، كله ثقة بالله تعالى وإيمان بنصره وبجنته.

شارك شيخه شقيقاً البلخي في معركة كولان عام ١٩٤هـ/ ٨٠٩م ضد الترك ووصف المعركة بقوله: «في يوم لا أرى فيه إلا رؤوساً تطير، وسيوفاً تقطع، ورماحاً تقصف. وبعد المعركة رأى حاتم رجلاً من فرقته يبكي. فقال له: مالك؟ قال: قُتل أخي. قال: حظ أخيك صار إلى الله وإلى رضوانه. فقال هذا الرجل: أسكت ما أبكي أسفاً عليه ولا على قتله؛ ولكنني أبكي أسفاً أن لا أكون دريت كيف كان صبره لله عند وقوع السيف».

ولنتركه يتحدث عن إحدى معاركه التي أظهر فيها رباطة جأش قل مثيلها، فكان بذلك في مقام التسليم لله تعالى، وتفويض الأمر إليه سبحانه: «لقينا الترك وكان بيننا جولة، فرماني تركي بوهق (حبل) فأقلبني عن فرسي، ونزل عن دابته

فقعد على صدري، وأخذ بلحيتي هذه الوافرة، وأخرج من جفنه سكيناً ليذبحني به. فوحقِّ سيدي ما كان قلبي عنده ولا عند سكينه، إنما كان قلبي عند سيدي أنظر ما ينزل به القضاء منه، وقلت: سيدي إن قضيت عليَّ أن يذبحني هذا فعلى الرأس والعين إنما أنا لك وملكك. فبينا أنا أخاطب سيدي وهو قاعد على صدري آخذ بلحيتي ليذبحني، إذ رماه بعض المسلمين بسهم فما أخطأ حلقه. فسقط عني، فقمت أنا إليه فأخذت السكين من يده فذبحته؛ فما هو إلا أن تكون قلوبكم عند السيد حتى تروا من عجائب لطفه ما لم تروا من الآباء والأمهات».

توفي حاتم عام ٢٣٧هـ/ ٨٥١م في قرية تدعى واشجرد، عند رباط على جبل يقال له رأس سروند. وتجدر الإشارة إلى أن حاتماً كان متزوجاً بأربع نسوة وله تسعة أولاد[1].

١٨ ـ الديلمي

كان من المجاهدين الزاهدين. اشترك في المعارك البحرية ضد البيزنطيين في البحر المتوسط. وفي إحدى الغزوات أسره الروم، وصلبوه على الدقل في أحد المراكب، فلما رآه المسلمون مصلوباً، حملوا على الروم حملة شديدة، وأخذوا المركب الذي فيه الشيخ وأطلقوا سراحه[2].

١٩ ـ رشدي بن راغب بن رشيد الخجا

ولد بدمشق في حي القنوات عام ١٣١١هـ/ ١٨٩٣م. نشأ بدمشق وتلقى العلم عن شيوخها وعلمائها، وتعمق بدراسة التصوف وسلوكه. مارس التجارة

---

(١) را: أبو نعيم، الأصفهاني، حلية الأولياء ٨/ ٧٣ ـ ٨٣؛ الزركلي، الأعلام ٢/ ١٥٢؛ بدوي، تاريخ التصوف، ص ٢٤١ ـ ٢٥٥؛ ابن الملقن، طبقات الأولياء، ص ١٨٠؛ الشعراني، الطبقات الكبرى ١/ ٨٠؛ القشيري، الرسالة، ص ١٧؛ السلمي، طبقات الصوفية، ص ٩١ ـ ٩٧؛ خليل الصفدي، الوافي بالوفيات، ج ١١، تحقيق شكري فيصل (قيسبادين ١٩٨١) ص ٢٣٣.

(٢) را: الأصفهاني، حلية الأولياء ١٠/ ١٥٣.

بين مصر وسورية. اشتهر بالصلاح والتقوى. ولما نشبت ثورات المجاهدين السوريين ضد الإحتلال الفرنسي لبلادهم، آزرهم الشيخ رشدي، وكان على صلة وثيقة بزعمائهم، وقدَّم إليهم السلاح والعتاد والمؤن سراً. توفي عام ١٣٥٩هـ/ ١٩٤٠م ودفن في المزة[1].

٢٠ ـ رمضان بن الشتيوي بن أحمد السويحلي

(١٢٩٧ ـ ١٣٣٨هـ/ ١٨٨٠ ـ ١٩٢٠م) من زعماء الجهاد في ثورات طرابلس الغرب. ولد وتعلم في زاوية المحجوب بمصراته بليبيا. ولما ضرب الإيطاليون طرابلس الغرب، قام رمضان مع مجاهدي مصراته بالتصدي للمعتدين، ولما استشهد زعيم المجاهدين الحاج أحمد المنقوش أواخر عام ١٣٢٩هـ/ ٢٤ تشرين أول ١٩١١م، تولى رمضان رئاستهم، وكان ذلك بدء ظهوره وبروزه. وفي إحدى المعارك التي جرت قرب طرابلس جرح رمضان في صدره، فعاد إلى مصراته للمعالجة، فهاجمها الإيطاليون، فتصدى للمهاجمين مع حشد كبير من الأهالي. وقد أصيب هذه المرة أيضاً ببطنه.

ولما احتل الإيطاليون مصراته صلحاً عام ١٣٣١هـ/ ١٩١٢م لزم بيته إلى أن كانت معركة القرضابية (بئر على مقربة من قصر سرت، على الشاطىء بين برقة وطرابلس الغرب) عام ١٣٣٣هـ/ ١٩١٥م فقاتل الإيطاليين وهزمهم وأثخن فيهم، ثم أجلاهم عن مصراته، وأنشأ بها في أيامه حكومة وطنية قوية برئاسته. وأنشئت فيها خلال تلك الفترة مدرسة لتخريج صغار الضباط، ومصانع ذخيرة، ومركز لإصلاح القطع الحربية الصغيرة، ومحطة للغواصات.

عندما تألفت حكومة الجمهورية الطرابلسية عام ١٣٣٧هـ/ ١٩١٨م كان رمضان في مقدمة العاملين لإنجاحها. وبعد توقيع صلح بني آدم مع الإيطاليين عام ١٣٣٨هـ/ ١٩١٩م، انتقل إلى مسلاته واتخذها مركزاً ثانياً له بعد مصراته. وقد ختمت حياته بغزوة على أرفلة حيث استشهد عام ١٣٣٨هـ/ ١٩٢٠م[2].

(١) را: أباظة والحافظ، تاريخ علماء دمشق ١/٥٢٨.
(٢) را: الزركلي، الأعلام ٣/٣٢.

٢١ ـ سعيد الشهيد

وصفه أبو نعيم الاصفهاني، صاحب الحلية، بقوله: «سعيد الشهيد، المقنَّع في الحديد، المشتاق إلى رؤية المنعم المجيد». «حدثنا عثمان بن محمد العثماني، حدثنا عباس بن يوسف قال: قال ميسرة الخادم: غزونا في بعض الغزوات فصادفنا العدو، فإذا بفتى إلى جانبي، وإذا هو مقنع في الحديد، فحمل على الميمنة حتى ثناها، وحمل على الميسرة حتى ثناها، وحمل على القلب حتى ثناها. ثم أنشأ يقول:

أحسِنْ بمولاكَ سعيد ظنًّا　　هذا الذي كنتَ له تمنَّى
تنحَ يا حورَ الجنانِ عنَّا　　مَالَكِ قاتلنا ولا قتلنا
لكنَ إلى سيدكنَّ اشتقْنا　　قد علم السر وما أعلنَّا

قال: فحمل فقاتل فقتل منهم عدداً، ثم رجع إلى مصافه، فتكالب عليه العدو، فإذا به قد حمل على الناس وأنشأ يقول:

قد كنتُ أرجو ورجائي لم يخبْ　　أن لا يضيعَ اليومَ كدِّي والطَّلَبْ
يا مَنْ ملا تلك القصورَ باللعب　　لولاكَ ما طابَتْ ولا طابَ الطَّرَبْ

فحمل فقاتل فقتل عدداً، ثم رجع، فتكالب عليه العدو، فحمل الثالثة وأنشأ يقول:

يا لعبةَ الخلدِ قفي ثم اسمعي　　مالك قاتلنا فكفِّي وارجعي
ثم ارجعي إلى الجِنانِ فأسرعي　　لا تطمعي لا تطمعي لا تطمعي

فحمل فقاتل حتى قُتل رحمه الله تعالى»[1].

٢٢ ـ سعيد الكردي النقشبندي

لما قام مصطفى كمال «أتاتورك» بإلغاء الخلافة العثمانية، وإلغاء الخط العربي، وتحويل تركيا إلى النمط الغربي الأوروبي، وقطع كل ما يربطها بدنيا العرب

(١) الأصفهاني، حلية الأولياء ١٠/١٦٥ ـ ١٦٦.

والإسلام، واجه ثورات إحتجاجية كثيرة منها ثورة الشيخ سعيد النقشبندي، التي اندلعت في بلاد الأكراد في ٢٣ شباط ١٣٤٤هـ/ ١٩٢٥م. وقد استولى الثوار بقيادة الشيخ سعيد على مدن عديدة منها: العزيز، خربوط؛ ووصلوا إلى أبواب ديار بكر واحتلوها في ٥ آذار ١٣٤٤هـ/ ١٩٢٥م. لكن القوات التركية طردتهم في ليل ٧ ـ ٨ آذار، وبدأت أعمال القمع وألقي القبض على الشيخ سعيد مع عدد من أنصاره. وفي ليل ٢٨ ـ ٢٩ حزيران من السنة نفسها عُلِّق الشيخ سعيد مع ستة وأربعين من رفاقه على أعواد المشانق.

لقد رأى كثير من المؤرخين أن ثورة الشيخ سعيد كانت تعبيراً عن استياء الأكراد من تصرفات أتاتورك اللادينية في تركية[1].

٢٣ ـ الشيخ شامل الداغستاني

كان شيخ الطريقة النقشبندية في بلاد داغستان، وأحد الزعماء الذين ثاروا على الحكم الروسي. وأكثرهم نجاحاً. ولد في السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر الميلادي، في قرية كمرى حيث كانت تقطن أسرته. وبدأ صيته وذكره ينتشران عام ١٢٤٦هـ/ ١٨٣٠م في الحملة التي شُنت على حصن خونزات حيث باءت هذه الحملة بالفشل؛ وسرعان ما اختاره ثوار داغستان زعيماً لهم بعد مقتل سلفه حمزة بك عام ١٢٥٠هـ/ ١٨٣٤م. فقاد النضال وانتصر على الروس في عدة معارك، لكن في عام ١٢٥٣هـ/ ١٨٣٧م حلت به الهزيمة وأكره على الإستسلام. لكنه سرعان ما استعاد حكمه في السنة التالية، وبسط سلطته على جزء عظيم من بلاد داغستان، كما سيطر على أرض ججنتزن غربي داغستان. وقد اعتمد في النظم التي سنها على الشريعة الإسلامية؛ لذلك عرف عهده في داغستان باسم عهد الشريعة. وكانت دولته مقسمة إلى ٣٢ ناحية، على رأس كل منها نائب، وفيها مفتٍ يعمل تحت إمرته أربعة قضاة يعينهم المفتي.

وكانت قوات الشيخ شامل تزيد على ٦٠ ألف مقاتل، وقد اتخذ حصن ودنو

(١) را: كاظم حيدر، الأكراد (بيروت ١٩٥٩) ص ٣٢ ـ ٣٣.

مقراً له منذ ١٢٦١هـ/ ١٨٤٥م حتى الغزو الروسي نيسان ١٢٧٦هـ/ ١٨٥٩م كما اتخذ من جبال داغستان وغابات ججنتزن معاقل حكمه. وقد حاول الروس عدة مرات إخماد ثورته، إلا أنهم باؤوا بالفشل. ومنذ عام ١٢٦١هـ/ ١٨٤٥م شرعوا في التغلغل ببطء في الجبال والمواضع المكشوفة من الغابات، عندئذٍ سعى الشيخ شامل للحصول على مساندة الأتراك، لكن جهوده لم تثمر لإنشغالهم بحرب القريم. وتقررت نتيجة النضال بعد سقوط ودنو. وقد أكره الشيخ على الإستسلام في كوينب آخر معاقله الجبلية. ولما حُمل إلى روسيا استقبله القيصر اسكندر الثاني في سانت بطرسبرغ، وجعل مقره مع عائلته مدينة كالوكا. وأقسم الشيخ مع أولاده، بناء على طلب القيصر، يمين الولاء عام ١٢٨٣هـ/ ١٨٦٦م. وفي شباط ١٢٨٦هـ/ ١٨٦٩م سُمح له بأداء فريضة الحج، فشخص إلى مكة المكرمة. وما لبث أن توفي بالمدينة المنورة في آذار ١٢٨٨هـ/ ١٨٧١م بعد حياة مليئة بالجهاد والنضال.

وقبيل وفاته سمحت السلطات الروسية لابنه الأكبر غازي محمد بزيارة والده المريض بالحجاز، لكن هذا الإبن سرعان ما التحق بخدمة الأتراك لقتال الروس عام ١٢٩٤هـ/ ١٨٧٧م، وإثارة أهل داغستان. توفي غازي محمد بمكة عام ١٣٢١هـ/ ١٩٠٣م. وقد وضع عبد الرحمن ابن شقيق شامل مصنفاً باللغة العربية عن عمه[1].

٢٤ ـ شقيق بن إبراهيم البلخي الأزدي

من قمم الصوفية الشامخة. سبب زهده، أنه خرج، وهو حدث، في تجارة إلى بلاد الترك يقال لهم الخصوصية، وكانوا يعبدون الأصنام «فدخل إلى بيت أصنامهم وعالِمهم فيه، حلق رأسه ولحيته، ولبس ثياباً حمراء أرجوانية. فقال له شقيق: إن هذا الذي أنت فيه باطل. ولهؤلاء ولك، ولهذا الخلق خالق وصانع ليس كمثله شيء، له الدنيا والآخرة، قادر على كل شيء، رازق كل شيء. فقال له الخادم: ليس يوافق قولك فعلك. فقال له شقيق: كيف ذاك؟ قال: زعمت

(١) را: دائرة المعارف الإسلامية ١٣/١١٦ ـ ١١٧.

أن لك خالقاً رازقاً قادراً على كل شيء، وقد تغيبت إلى ههنا لطلب الرزق، ولو كان كما تقول فإن الذي رزقك ههنا هو الذي يرزقك ثَمَّ، فتربح العناء». فوقع كلام التركي في نفس شقيق أحسن موقع، فرجع إلى بلاده، وتصدق بجميع ما كان يملك وأخذ في طلب العلم. والواقع أنه كان في ابتداء أمره شاعراً، فتاب عن الشعر، وكان مرابياً فأقلع عن ذلك، وكان يمتلك ثلاثمائة قرية، فتخلى عنها، وتصدق بأكثر من ثلاثمائة ألف درهم، ولبس الصوف، وأخذ يجاهد نفسه بالصوم والسهر والإكتفاء بالقليل من الطعام الخشن.

بعد ذلك انطلق إلى مخاطبة الظالمين، جهاراً، ليردهم عن غيهم وظلمهم؛ لأنه لم يتخوف منهم، وفي رأيه أنه ليس بزاهد مَنْ تحاشى هذا الأمر، أو خاف الحكام ولم يردعهم بقوله.

ولما نادى المنادي أن حي على الجهاد، سارع إلى خوض المعارك، لا يبالي على أي جنب كان في الله مصرعه. أنظر إليه في ساحة الوغى، محارباً العدو، مسلحاً بإيمانه وثقته في الله تعالى، شاهراً سيفه، فارساً بكل ما تتطلبه كلمة الفروسية من معنى، هادئاً، مطمئناً، كامل الثقة في الله.

لقد اعتبر شقيق أن محاربة عدو الله من أعظم القربات إلى الله تعالى. وكانت فلسفته في الجهاد أن يكون خالصاً لوجه الله سبحانه، ولإعلاء كلمته، وابتغاء لنيل رضوانه، لا لصيت، ولا لشهرة، ولا لمغنم أو مكسب. وكان ينصح نفسه وإخوانه بالإستعداد للموت في كل لحظة: «إذا أصبحت فلا يكون همك في طلب رضى الخلق وسخطهم، ولا يكونن خوفك إلا ما قدمت من الذنوب، حتى لا تجتريء أن تزيد عليه غيره، ولا يكونن استعدادك إلا للموت». وكان جل دعائه: «اللهم ألحقني بالشهداء والأحياء المرزوقين». وكانت سعادته العظمى عندما تحتدم المعركة ويحمى وطيسها، وهو في غمارها ينكل بالعدو بشجاعة لا تعرف للجبن أو الخور سبيلاً، غير مبال بالموت. فكان لذلك يفرح بالمعركة فرح العريس في ليلة زفافه: «لكني والله أرى نفسي في هذا اليوم (يوم المعركة) مثل ما كنت في الليلة التي زفت فيها إمرأتي إلي».

وكان تلاميذه ومريدوه، الذين يزيدون على ثلاثمائة، يشاركونه الجهاد في

سبيل الله وخوض معارك الشرف والبطولة. ومن هؤلاء الزاهد المجاهد حاتم الأصم.

وفي عام ١٩٤هـ/ ٨١٠م جرت معركة عنيفة بين المجاهدين المسلمين وبين الأتراك في قرية تركية «كولان» ما وراء النهر. وتقدم شقيق كعادته، لكنه ما لبث أن خر إلى الأرض ودرقته (ترسه) تحت رأسه، فانهالت عليه سيوف الأعداء من كل صوب فصبر لله حتى فاضت روحه، فبكى أصحابه وتلاميذه، وحملوا على الأعداء حملة شديدة حتى حقق الله تعالى لهم الفوز والنصر.

ولما استشهد كان عمره أربع وتسعون سنة. وبالرغم من غناه السابق، لم يكن لهذا الشهيد المجاهد كفن يكفن به، لأنه باع نفسه وماله ودمه وعرقه... في سبيل الله وحده.

ولقد ظل الناس يتبركون بسيفه وثيابه لفترة طويلة[1].

٢٥ ـ طيفور بن عيسى البسطامي

أبو يزيد، زاهد مشهور، نسبته إلى بسطام بين خراسان والعراق. كان جده مجوسياً فأسلم وحسن إسلامه. ولد أبو يزيد ببسطام عام ١٨٨هـ/ ٨٠٤م من أبوين تقيين ورعين، يتحريان الحلال، ويبتعدان عن الحرام. فنشأ أبو يزيد على التحلي بهذه الصفات، حتى حاز لقب أفضل أهل زمانه، وأجلّهم حالاً. وفي مجال الجهاد الحربي، تدّرب أبو يزيد على أساليب القتال واستخدام السلاح وركوب الخيل، واتقن الرماية، وخبر الكر والفر، ثم انطلق يجاهد في سبيل الله، ويرابط في الثغور الإسلامية، حيث كان يرتقي فوق سور الرباط، ويستمر طيلة الليل حارساً له ممن يقصده من الأعداء.

(١) را: أبو نعيم الأصفهاني، حلية الأولياء ٨/ ٥٩ ـ ٧٠؛ محمود، إبراهيم بن أدهم، ص ٩ ـ ١٠؛ عبد الحليم محمود، أبو يزيد البسطامي (بيروت المكتبة العصرية) ص ٥٣ ـ ٥٤؛ بدوي، تاريخ التصوف، ص ٢٤٣؛ الزركلي، الأعلام ٣/ ١٧١؛ ابن الملقن، طبقات الأولياء ص ١٢ ـ ١٣؛ القشيري الرسالة، ص ١٤؛ اليافعي، مرآة الجنان ١/ ٤٤٥؛ الحنبلي؛ شذرات الذهب ١/ ٣٤١؛ السلمي، طبقات الصوفية، ص ٦١ ـ ٦٦؛ الشعراني، الطبقات ١/ ٧٦؛ الكتبي، فوات الوفيات ٢/ ١٠٥ ـ ١٠٦؛ الصفدي، الوافي بالوفيات ١٦/ ١٧٣ ـ ١٧٤.

وفي رباطه كان لا يفتر لسانه عن ذكر الله تعالى، فجمع بذلك بين الحالتين اللتين ذكرهما رسول الله ﷺ حينما قال: «عينان لا تمسهما النار: عين بكت من خشية الله، وعين سهرت تحرس في سبيل الله».

وكانت حياة أبي يزيد موزعة بين العبادة والجهاد: فهو إما في المسجد يتعبد ويربي التلاميذ، وإما في الرباط يحرس، وإما في المعركة مشهراً سيفه يقاتل في سبيل إعلاء كلمة الله. وفي ذلك يقول «لم أزل منذ أربعين سنة أني ما استندت إلى حائط إلا إلى حائط مسجد أو رباط. فقيل له: لم لا تستند؟ فقال: سمعت الله عزَّ وجلَّ يقول ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ، وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة ٧ – ٨] فهل ترى من رخصة؟».

ويصف جهاده في ساحة المعركة: «أقامني الحق مع المجاهدين، أضرب معهم بالسيوف في وجوه أعدائه دهراً طويلاً».

ومما لا شك فيه أن الصوفية يعتبرون أن الحق سبحانه وتعالى هو الذي يتفضَّل عليهم، ويقيمهم فيما هم فيه من خير، فالفضل والمنَّة من الله تعالى؛ لذلك رأينا أبا يزيد يقول أقامني الحق.

توفي أبو يزيد ببسطام عام ٢٦١هـ/ ٨٧٥م[1].

٢٦ ـ عابدين بن محمد الكنتي

أحد شيوخ قبيلة كنته في منطقة تينبكتو. ورث المشيخة عن والده الذي ينحدر من أسرة عربية يصل نسبها إلى عقبة بن نافع الفهري، فاتح إفريقيا ومؤسس مدينة القيروان. كان عمه البكاي شيخ القادرية في تينبكتو. وبالرغم من علاقات كنته الجيدة مع الفرنسيين، فإن عابدين، وبعض أتباعه حاربوهم. والواقع أن

(١) را: محمود، أبو يزيد البسطامي، ص ٥١ ـ ٥٢؛ الزركلي، الأعلام ٣/ ٢٣٥؛ ابن الملقن، طبقات الأولياء، ص ٤٠١ ـ ٤٠٢؛ عبد الستار متولي، أدب الزهد في العصر العباسي (القاهرة ١٩٨٤) ص ٣٠٥؛ القشيري، الرسالة، ص ١٤ ـ ١٦؛ السلمي، طبقات الصوفية، ص ٦٧ ـ ٧٤؛ الأصفهاني، حلية الأولياء ١٠/ ٣٣ ـ ٤١؛ الشعراني، الطبقات ١/ ٧٦ ـ ٧٧؛ الصفدي، الوافي بالوفيات ١٦/ ٥١٤ ـ ٥١٦.

الشيخ عابدين لما رجع من الحج أقام في زاوية الجغبوب السنوسية عدة أشهر، تلقى فيها الطريقة عن الشيخ محمد المهدي، وأصبح عابدين مقدم الطريقة السنوسية في تينبكو وصحراء مالي الشمالية، لذلك أعلن الجهاد ضد فرنسا في صحراء مالي وشمال موريتانيا والساقية الحمراء إلى جنوب المغرب بوادي نون، عند أخواله قبيلة تكنه، وجنوب الجزائر لدى طوارق الهقّار، الذين كانوا يقدرونه لنسبه الشريف، ولعلمه وتضلعه في الدين. فحارب الفرنسيين زهاء نصف قرن، دون أن يهادن أو يلقي السلاح.

توفي عابدين في جنوب المغرب خلال الحرب العالمية الثانية[1].

٢٧ ـ عبد الله فضيل الطوير الزوي

أحد أتباع الطريقة السنوسية. ينتمي إلى قبيلة زوية. وهو من الذين تولوا قيادة الزوايا السنوسية في شمال تشاد. وعندما وصل الفرنسيون إلى تشاد كان عبد الله على رأس المجاهدين الذين تصدوا للغزو الإستعماري لبلادهم. وخاض عدة معارك موفقة، سقط خلالها عشرات الشهداء من زملائه السنوسيين المجاهدين: ففي معركة بئر العلالي وحدها ٥/ ١٢/ ١٣٢٠هـ/ ١٩٠٢م سقط مائة شهيد ليبي كان من بينهم ستون من قبيلة زوية وحدها، وهي قبيلة الشيخ عبد الله ـ كما ذكرنا.

وفي عام ١٣٢٤هـ/ ١٩٠٦م جرت معركة أم العظام شمال تشاد حيث سقط الشيخ عبد الله شهيداً مع كوكبة من المجاهدين الشجعان[2].

٢٨ ـ عبد الله بن حسون

دفين ثغرسلا. ولد بعد عام ٩٢٠هـ/ ١٥١٤م وتوفي عن سن عالية تزيد على التسعين. وفاته كانت عام ١٠١٣هـ/ ١٦٠٤م. كان من الفقهاء المتصوفين على

(١) را: القشاط، جهاد الليبيين، ص ٢٣٧ ـ ٢٤٢.
(٢) را: القشاط، جهاد الليبيين، ص ٢٢٢.

الطريقة الجزولية الشاذلية. إتصل بالشيخ أبي عبد الله محمد الحاج الدلائي، كما ساهم في حركة الجهاد التي كان محمد العياشي يقودها على الشواطيء الغربية من المغرب، بعد وفاة المنصور الذهبي. وتجدر الإشارة إلى أن العياشي كان من تلاميذه المجاهدين[١].

٢٩ ـ عبد الله بن علي الأنصاري

استشهد بالبصرة عام ٤٨٤هـ/ ١٠٩١م وكان من العبّاد الزاهدين، والحفّاظ الخاشعين[٢].

٣٠ ـ عبد الله بن المبارك

ولد عام ١١٨هـ/ ٧٣٦م في مدينة مرو بخراسان، من أب تركي وأم خوارزمية، وقد وُجد في عصر يُحتقر فيه غير العربي، ومع ذلك فإن الإسلام قد جعل منه قدوة ومثالاً يُحتذى.

وهذا دليل على عظمة هذا الدين، وتأثيره العظيم في النفوس، وقدرته على صنع الرجال. نشأ في مرو وتلقى علومه فيها على يد عدد من مشايخها، واشتهر بالحفظ، ثم مال إلى اللهو والطرب. ثم عزفت نفسه عن هذه الحياة، وأقبل على العلم فدرس على كثير من المشايخ: سفيان الثوري، الليث بن سعد، الأوزاعي، عبد الله بن عون، معمر بن راشد، أبو حنيفة النعمان، مالك بن أنس... وروى عن الأخير الموطأ.

وقد حدّث عنه داود بن عبد الرحمن العطار، وسفيان بن عيينة، وأبو اسحاق الفزاري، ويعقوب الدورقي، وأبو بكر بن أبي شيبة، ويحيى بن سعيد القطان، والحسن بن الربيع البوراني...

(١) را: القادري، التقاط الدرر، ص ٤٤ وص ٦٧.
(٢) را: اليافعي، مرآة الجنان ٣/ ١٣٥.

وكان ثقة في الحديث، حتى إذا اختلف بعض المحدثين في حديث قالوا: «مروا بنا إلى هذا الطبيب حتى نسأله (يعنون عبد الله بن المبارك)».

ثم حبب إليه الزهد فاشتهر أمره وذاع صيته.

لقد علم ابن المبارك أن الزهد محلّه القلب، وأن الذين فهموا أن الزهد يعني الإنقطاع إلى العبادة والإنطواء على النفس، والتقوقع في زاوية، ورفض الدنيا، واعتزال الناس، والعيش في الحياة على صدقات المحسنين، وهبات المتصدقين... منحرفون عن المعني الحقيقي للزهد؛ لأنهم قد اهتموا بالقشور والمظاهر ولم ينفذوا إلى لب الزهد. فابن المبارك كان من الزهاد الذين جدوا في الحياة وكدوا، وكسبوا لقمتهم بعرق جبينهم، ثم أنفقوا في سبيل الله ما تيسر لهم. ولما كان ابن المبارك قد تعلم مهنة التجارة وحقق فيها أرباحاً كثيرة، اعترض عليه كثير من الزهاد ومنهم الفضيل بن عياض الذي قال له: «أنت تأمرنا بالزهد والتقلل والبُلغة، ونراك تأتي بالبضائع من بلاد خراسان إلى البلد الحرام كيف ذا؟ فقال ابن المبارك: يا أبا علي إنما أفعل ذا لأصون به جهي، وأكرم به عرضي، واستعين به على طاعة ربي». ذكر شعيب بن حرب عنه فقال: «كانت له تجارة واسعة وكان ينفق على الفقراء في السنة مائة ألف درهم ويقضي دين المدينين». ومما يروى عنه أنه خرج مرة إلى الحج مع بعض أصحابه، فمر بمنطقة فقيرة، فرأى فتاة تأتي إلى مزبلة الطريق لتأخذ منها ميتة وتسارع إلى خيمتها؛ فسألها ابن المبارك عن ذلك فشرحت له فقرها وتكفّلها بأخيها الصغير اليتيم، وبأنه لا قوت لهما إلا ما يُلقي على هذه المزبلة. عند ذلك أمر ابن المبارك وكيله أن يستبقي من الأموال مبلغ عشرين ديناراً، وهي تكلفة طريق العودة إلى مرو، وأمر بإعطائها المبلغ الباقي وهو مبلغ يناهز الألف دينار. وقفل راجعاً إلى بلدته وهو يقول: «هذا أفضل من حجنا هذا العام». وكان يطعم الناس أفخر المأكولات، وهو صائم في الحر الشديد، إحتساباً لله تعالى، وهذا هو الزهد الحقيقي، زهد الإختيار، لا زهد الإضطرار، وزهد الغنى، لا زهد الفاقة والحرمان.

وهكذا فقد بلغ ابن المبارك درجة عظيمة من الزهد في الدنيا، حتى أنه كان

يعتبر المقبرة كنز الرجال، والمزبلة كنز الأموال، وفيهما أكبر العبر وأعظم المواعظ. ومن كلامه في هذا المجال: «إن العلماء ورثة الأنبياء فإذا كانوا على طمع فبِمَنْ يُقتدى؟ والتجار أمناء الله، فإذا خانوا فمن يُؤتمن؟ والغزاة أضياف الله، فإذا غلّوا فبمن يظفر على العدو؟ والزهّاد ملوك الأرض، فإذا كانوا ذوي رياء فمن يُتّبع؟ والولاة رعاة الأنام، فإذا كان الراعي ذئباً فبمن تُحفظ الرعية؟». لقد كان زهده زهد العالم العابد، الذي فرّغ قلبه مما سوى الله، وأخلص كل أعماله وأقواله لله تعالى.

وهو زهد الداعية الذي يخالط الناس، ويعلمهم ويؤدبهم، ويأمرهم ينهاهم، ويحسن إليهم، ويخالطهم ويصبر على أذاهم».

كذلك لم يفهم الزهد تواكلاً، وقعوداً عن الجهاد في سبيل الله؛ بل كان منخرطاً في سلك المجاهدين المدافعين عن حمى الإسلام. لقد رأى أن الجهاد أفضل العبادات، وأنه أليق بالمسلم من العكوف في زاوية المسجد. فعندما كان يجاهد في طرطوس[1] وعلم أن صديقه الزاهد الفضيل بن عياض آثر المجاورة في الحرم المكي على الجهاد في سبيل الله، تألم ابن المبارك وكتب إليه رسالة يرغبّه في الجهاد، ويحثه على ترك المجاورة لمنافحة أعداء الأمة. وقد ختم رسالته بالأبيات التالية:

«يا عابدَ الحرمينِ لو أبصرتَنا ... لعلمتَ أنكَ في العبادةِ تلعبُ
مَنْ كان يُخضِّبُ خدَّهُ بدموعِهِ ... فنحورُنا بدمائِنا تتخضَّبُ
أو كان يُتعبُ خيلَه في باطلٍ ... فخيولُنا يومَ الصَبيحةِ[2] تتعبُ
ريحُ العبيرِ لكم ونحنُ عبيرُنا ... رهجُ[3] السنابكِ[4] والغبارُ الأطيبُ
ولقد أتانا من مقالِ نبيِّنا ... قولٌ صحيحٌ صادقٌ لا يكذبُ

(١) مدينة في ثغور الشام بين إنطاكية وحلب وبلاد الروم، وبها قبر المأمون، جاءها غازياً فأدركته منيته فمات. وكانت موطناً للصالحين والزهاد ويقصدونها للرباط والجهاد لأنها من ثغور المسلمين (معجم البلدان لياقوت ٦/٣٨).
(٢) الصبيحة: المعركة.
(٣) رهج: غبار.
(٤) السنابك: أطراف حوافر الخيل.

لا يستوي إغبارُ خيلِ اللهِ في ... أنفِ امرئٍ ودخانُ نارٍ تلهبُ[1]
هذا كتابُ اللهِ ينطقُ بيننا ... ليسَ الشهيدُ بميِّتٍ لا يكذبُ».

وقد أملى هذه الرسالة على الشيخ محمد بن أبي سكينة، وبعث بها إلى الفضيل. فلما قرأها الفضيل وهو في المسجد الحرام بكى وقال «صدق أبو عبد الرحمن ونصح».

ولابن المبارك أشعار في ذم النسّاك الذين استوطنوا بغداد ولزموا زواياهم، تاركين فضيلة الجهاد وأمر الدفاع عن الثغور:

«أيها الناسكُ الذي لبسَ الصو ... فَ وأضحى يُعَدُّ في العُبَّادِ
الزمْ الثغرَ والتعبُّدَ فيه ... ليسَ بغدادُ مسكنَ الزهادِ
إن بغدادَ للملوكِ محلٌّ ... ومناخٌ للقارئِ الصيادِ»

فالمؤمن الصادق، في نظره، والزاهد الحقيقي، هو الذي يجمع بين العلم والعمل، وبين العبادة والجهاد.

وبالرغم من كثرة تصانيفه، فإن مؤلفه عن الجهاد كان أول مصنّف في بابه. وقد جمع في كتابه هذا مائتين واثنين وستين من الأحاديث المرفوعة، وأقوال الصحابة والتابعين، وقصص جهادهم، مما يرغّب في الجهاد والشهادة في سبيل الله تعالى، ويبين فضل المجاهدين والشهداء، وما أعده الله لهم من عظيم الإكرام وعلو المقام. كما له شعر في الحث على الجهاد.

إنطلق ابن المبارك إلى ميدان الجهاد، يجاهد بعلمه وماله ونفسه في سبيل الله وإعلاءً لكلمة الحق والدين، فشارك في عدة معارك خاضها المسلمون دفاعاً عن الأرض والعقيدة «وكان مقاتلاً مجيداً، وبطلاً صنديداً، وكان أروع ما فيه من ناحية الجهاد أنه أراد بقتاله ونضاله وجه الله تعالى، لا مراءاة الناس، ولا الفخر بين العباد، حتى كان يتخفّى أحياناً ويتلثّم وهو يقاتل حتى لا يعرفه أحد، ويظل عمله خالصاً لربه، ليثيبه عليه أعظم الثواب». «ولقد حدّث عبده بن سليمان

(١) جاء في الحديث: «لا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم في جوف عبد أبداً» محمد جمال، عبد الله ابن المبارك (دمشق ١٩٨٧) ص ١٧١.

المروزي قال: كنا في سرية مع عبد الله بن المبارك، في بلاد الروم، فصادفنا العدو، فلما التقى الصفان، خرج رجل من العدو فدعا إلى المبارزة، فخرج إليه رجل منا فقتله، ثم خرج آخر فقتله، ثم دعا إلى المبارزة، فخرج إليه رجل فطارده ساعة فطعنه فقتله، فازدحم إليه الناس، فكنت فيمن ازدحم إليه، فإذا هو يلثم وجهه بكمه، فأخذت بطرف كمه فجذبته، فإذا هو عبد الله بن المبارك، فقال لي معاتباً: وأنت يا أبا عمرو ممن يشنّع علينا؟» ويروى أنه لما خرج لأول مرة مجاهداً من بغداد إلى المصيصة بالشام، خرج معه جماعة من المجاهدين المرابطين، فلما رأى النفير والغزو والسرايا في كل يوم قال: «إنا لله وإنا إليه راجعون على أعمار أفنيناها، وأيام وليال قد قطعناها في علم الشعر، وتركنا ها هنا أبواب الجنة مفتوحة».

وهكذا نراه يندم على الأيام السالفة بالرغم من أنه أمضاها في طلب العلوم الشرعية، والتفقُّه في الدين وأعمال البر والخير والإحسان؛ لأنه رأى أن الجهاد في سبيل الله، ونصرة دينه، وإعلاء كلمته أفضل عمل للمؤمن: فلا يستوي المجاهدون والقاعدون، ولو كانوا جميعاً من المؤمنين، وأن الله تعالى قد فضل المجاهد على القاعد أجراً عظيماً. والمؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وإن كان في كل خير.

وكان يخوض المعارك خوض الجسور الشجاع لا خوض الجبان الرعديد، حتى إذا انجلت المعركة عن هزيمة الأعداء، وأقبل المجاهدون على تقسيم الغنائم، ترك ابن المبارك الساحة وغاب عن الأنظار؛ لأنه إنما يقاتل في سبيل الله، ولأجل مرضاته سبحانه، وليس من أجل مغنم أو شهرة أو عرض من أعراض الدنيا الفانية. لذلك كان لا يعيقه عن الجهاد حر ولا ظمأ ولا مطر ولا برد إلى غير ذلك من العوامل التي يتخذها البعض ذريعة للتخلف عن الركب. وتجدر الإشارة إلى أنه كان يلازم قيام الليل وصيام النهار، حتى في أيام الجهاد والحرب. وكان خلال مرابطته يخص أخوانه المجاهدين بدروس ومواعظ وإرشادات في مختلف العلوم من فقه وحديث ولغة وأدب. . . كما كان يحضهم على الجهاد مبيناً لهم أن العبادة تحت ظلال السيوف خير من العبادة في محراب المسجد حيث الأمن والإطمئنان.

لذلك انضوت تحت لوائه فرقة من الصوفية المجاهدين الذين كانوا يتنقلون معه من العراق إلى سورية إلى الثغور الإسلامية لا سيما طرسوس والمصيصة.

ومحبته لهؤلاء الفقراء المجاهدين دفعته إلى الإنفاق عليهم من ماله الخاص وبشكل يحفظ لهم كرامتهم: قال عمر بن حفص الصوفي بمنبج: «خرج ابن المبارك من بغداد يريد المصيصة، فصحبه الصوفية، فقال لهم: أنتم لكم أنفس تحتشمون أن ينفق عليكم، يا غلام هات الطست، فالقى على الطست منديلاً. ثم قال: يلقي كل رجل منكم تحت المنديل ما معه. قال فجعل الرجل يلقي عشرة دراهم والرجل يلقي عشرين. فأنفق عليهم إلى المصيصة. فلما بلغها قال: هذه بلاد نفير فنقسم ما بقي. فجعل يعطي الرجل عشرين ديناراً فيقول: يا أبا عبد الرحمن إنما أعطيت عشرين درهماً. فيقول: وما تنكر أن يبارك الله للغازي في نفقته».

وظل ابن المبارك يجاهد ويناضل، ويرشد إلى سبيل الله تعالى بالقول والعمل والقدوة والسلوك حتى كان شهر رمضان عام ١٨١هـ/ ٨٩٧م وبينما كان منصرفاً من إحدى المعارك توفي في بلدة «هيت» على شاطيء الفرات قرب الأنبار؛ وكان له من العمر ثلاث وستون سنة. ترك العديد من المصنفات لا سيما في التفسير والفقه والرقائق والجهاد. . . وكان أول من صنف في الموضوع الأخير ـ كما ذكرنا ـ ومن أوائل الذين دوّنوا الحديث.

كما أسلم على يديه عدد من النصارى واليهود والمجوس منهم ماسرجس النيسابوري النصراني.

لقد جمع ابن المبارك بين الإيمان والقوة، وبين العلم والعمل، وبين الزهد والجهاد. وكان من أكبر المجاهدين «كان من أرباب السيف، كما كان من أرباب القلم والقرطاس. كان إماماً في ساحة الجهاد كما كان إماماً في محراب المسجد؛ وذلك لأن العلم والتقى والزهد والورع ليست من مبررات القعود عن الجهاد، كما اعتاد المسلمون أن يروا في عصرنا الحاضر، أو كما يحب أن يرى بعض أدعياء العلم والزهد في العصر الحاضر، بل كل ذلك يؤكد الجهاد ويدفع إليه، ويجعله أوجب وآكد».

قال عنه الذهبي في تذكرة الحفاظ: «فخر المجاهدين» فأكثر ما كان يرابط في ثغري طرسوس والمصيصة. وقال فيه ابن كثير في البداية والنهاية «وكان كثير الغزو والحج». فمما يؤثر عنه أنه كان يحج سنة ويغزو سنة.

ويكفيه فخراً أن يقول عنه الإمام أحمد بن حنبل «ما أخرجت خراسان مثل ابن المبارك».

«قال الحسن بن عيسى: اجتمع جماعة من أصحاب ابن المبارك مثل الفضل بن موسى ومخلد بن الحسين ومحمد بن النضر فقالوا: تعالوا حتى نعد خصال ابن المبارك من أبواب الخير فقالوا: جمع العلم والفقه والأدب والنحو واللغة والزهد والشعر والفصاحة والورع والإنصاف وقيام الليل والعبادة والحج والغزو والسخاء والشجاعة والفروسية والشدة في بدنه وترك الكلام فيما لا يعنيه وقلة الخلاف على أصحابه».

وما أحوج أمة محمد ﷺ إلى الإزدياد من هذا الصنف الكريم العزيز النادر، من خيار الرجال وفحول الأبطال: علماء المقال، ومهرة الأعمال، وفرسان النضال؛ لأنهم المشاعل العالية المضيئة لطريق القوة والعزة والكرامة، وهم أهل المضاء والوفاء والفداء[1].

(١) را: محمد جمال، عبد الله بن المبارك، ص ٤٧ ـ ٢٩٣؛ اليافعي، مرآة الجنان ١/ ٣٧٩ ـ ٣٩٠؛ ابن كثير، البداية والنهاية ١٠/ ١٧٧؛ الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد (القاهرة ١٩٣١) و١٤/ ١٨٤ و ٣/ ٣٣ ـ ٣٤ ١٠/ ١٥٢ ـ ١٦٧؛ ابن عبد ربه العقد الفريد، ج ٦، تحقيق أحمد أمين ورفاقه (بيروت ١٩٨٣) ص ١٣؛ ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، ١٤/ ١٥، تحقيق روحية النحاس (دمشق ١٩٨٨)؛ السيوطي، أربعون حديثاً، ص ٣٦؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان ٣/ ٣٤ و٤/ ٢٠٢؛ الشرباصي، فدائيون، ص ٢٤٩ ـ ٢٥٣؛ معارف البستاني، (ط. ١٩٦٢) ٤/ ١٩؛ الحنبلي، شذرات الذهب ١/ ٢٩٥ ـ ٢٩٦؛ صديق القنوجي، التاج المكلل من جواهر مآثر الطراز الآخر والأول، تحقيق عبد الحكيم شرف الدين (بومباي ١٣٨٣هـ) ص ٥٦ ـ ٥٧؛ الزركلي، الأعلام ٤/ ١١٥؛ عبد الوهاب الشعراني، الطبقات ١/ ٥٩؛ الأصفهاني، حلية الأولياء ٨/ ١٦٢ ـ ١٩٠؛ كحالة، معجم ٦/ ١٠٦؛ الصفدي، الوافي ١٧/ ٤١٩ ـ ٤٢٠.

٣١ ـ عبد الله بن محمد التقي التعايشي

ولد في بادية الغرب الجنوبي من دار فور بالسودان عام ١٢٦٦هـ/ ١٨٥٠م. إنتقل إلى وادي النيل، فاتصل بالمهدي محمد أحمد السوداني، فكان من كبار أنصاره في حروبه مع حكومة السودان. ولما أشرف المهدي على الموت أوصى للتعايشي بخلافته، فبايعه الدراويش (أتباع المهدي) عام ١٣٠٢هـ/ ١٨٨٥م. أقام التعايشي بأم درمان، وعم نفوذه السودان كله، إلا المقاطعات النائية، التي استولت عليها حكومات أخرى، كمصوّع التي أخذتها إيطاليا، وبوغوس التي ضُمت إلى الحبشة، وبربرة وزيلع وأوغندة التي امتلكها الإنكليز. أما بحر الغزال والنيل الأبيض فكانت فرنسة قد شرعت في الإستيلاء عليهما. وقد اتفق التعايشي مع الأحباش لقتال الطليان، فطلبت إيطاليا من انكلترا أن تساعدها على الدراويش، فوجهت إنكلترا جيشاً مصرياً أنكليزياً، بقيادة كتشنر سردار الجيش المصري آنذاك، فاستولى على دنقلة عام ١٣١٤هـ/ ١٨٩٦م. ثم نشبت معارك عديدة بينه وبين الدراويش إنتهت بمقتل التعايشي في أطراف أم درمان[1].

٣٢ ـ عبد الله بن ياسين الجزولي

كان عام ٤١٦هـ/ ١٠٣٥م يقيم بالسوس في المغرب الأقصى، في دار المرابطين التي أقامها الشيخ واجاج بن زلّو اللمطي، تلميذ الشيخ أبي عمران الفاسي. وكان الشيخ عبد الله تلقى العلم في الأندلس، على عهد ملوك الطوائف، وقد اشتهر بوفرة العلم وشدة الورع والزهد. وفي شمال إفريقيا اتصل الشيخ عبد الله بيحيى بن إبراهيم الجدالي، زعيم قبيلة جدالة، وأخذ يعلم أهل جدالة أحكام الدين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولكنهم سرعان ما تفرقوا عنه لشدته في محاربة البدع وما هم عليه من المنكر؛ فهجرهم وابتنى رباطاً للعبادة في مكان ناء من الصحراء؛ وقد أقام فيه سبعة رجال من قبيلة لمتونة شقيقة جدالة. من هؤلاء السبعة يحيى بن عمر بن تلاكاكين من زعماء لمتونة.

(١) را: الزركلي، الأعلام ٤/ ١٣٢ ـ ١٣٣.

وسرعان ما كثر أتباعه من أهل صنهاجة الراغبين في العبادة والزهد، حتى بلغوا نحواً من ألف رجل أطلق عليهم ابن ياسين اسم المرابطين لملازمتهم لرباطه. وقد عكف على تعليمهم قواعد العبادات، وكان يرغِّبهم في الزهادة والجهاد في سبيل الله ومحاربة مَنْ خرج عن مذهبهم. ثم أخذ يبعث تلاميذه إلى قبائلهم لحثهم على ترك المنكر والتمسك بقواعد الإسلام، لكن دون جدوى؛ مما أضطره إلى الخروج بنفسه إلى رؤساء القبائل ودعوتهم إلى التوبة؛ لكنهم لم يصغوا لقوله، فغزا قبيلة جدالة عام ٤٢٣هـ/ ١٠٣١م وقتل منها عدداً كبيراً الأمر الذي حدا ببقية القبائل إلى إعلان الطاعة، وبعد وفاة الأمير يحيى بن إبراهيم تولى إمارة القبائل يحيى بن عمر بن تلاكاكين اللمتوني الذي امتاز بالصلاح والورع والحزم. ثم إن ابن ياسين قد أرسل حملات مظفرة إلى بلاد السودان لنشر الإسلام بين قبائلها الوثنية، وافتتح كثيراً من جهاتها. ثم سيطر المرابطون على بلاد المغرب كلها. وأسسوا دولة في المنطقة الشاسعة الممتدة من جبال أطلس في الشمال إلى منحنى نهر النيجر في الجنوب.

توفي الشيخ عبد الله عام ٤٥١هـ/ ١٠٥٩م على أثر جروح أصيب بها في إحدى المعارك التي خاضها المرابطون في سبيل القضاء على الكفر والضلالات، وفي سبيل نشر الإسلام الصحيح. وما لبث هؤلاء المجاهدون أن بذلوا الكثير من دمائهم وأموالهم حتى يمدوا عمر الإسلام بالأندلس قروناً أخرى بعدما شارفت تلك الأصقاع على الضياع[1].

٣٣ ـ عبد السلام بن مشيش أو بشيش الحسني

ولد في جبل العلم قرب تطوان، شمالي المغرب العربي. رحل إلى الشرق ثم عاد إلى المغرب وتتلمذ على أبي مدين في بجاية. بعدئذٍ رجع إلى موطنه. استشهد في رباط جبل العلم نحو عام ٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م خلال مقاومته لابن أبي الطواجين الكتامي، الساحر المتنبيء. وقد دفن بقنة الجبل المذكور. كان ابن

(١) را: عبد الوحد شعيب، دور المرابطين في الجهاد بالأندلس (مالطا ١٩٩٠) ص ١٥ ـ ١٩؛ الزركلي، الأعلام ٤/١٤٤.

مشيش من رجال التصوف المعتدل، القائم على حسن العمل لا الكلام في المغيبات، وكان يصدع بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا يتساهل في إغفال فرض من فروض الإسلام. ومكانته في المغرب كمكانة الشافعي في المشرق. ويعتبر ابن مشيش أحد الأقطاب المشهورين في المغرب.

له: إعانة الراغبين في الصلاة والسلام على أفضل المرسلين، ويعرف إختصاراً بصلوات ابن مشيش؛ وعلى هذا الكتاب عدد كبير من الشروح.

تتلمذ على يديه مريد واحد هو أبو الحسن الشاذلي الذي تتلمذ على يديه الألوف، والذي أسس طريقة صوفية لا يزال أتباعها حتى الآن يُعدون بالملايين في شتى أنحاء العالم الإسلامي[1].

٣٤ ـ عبد القادر بن محيي الدين بن مصطفى الحسني الجزائري

ولد عام ١٢٢٢هـ/ ١٨٠٧م في القيطنة، غربي مدينة معسكر من مقاطعة وهران الجزائرية. وكان والده قد بنى زاوية لتعليم القرآن الكريم والسُّنة النبوية ومبادىء الشريعة الإسلامية؛ وكان يشفق على المرضى، ويعين المحتاجين، ويحمي المضطهدين، ويعطي اليتامى، ويحل مشاكل الناس، ويوفق المتخاصمين. فانتشر اسمه، وذاع صيته واعتبره الجميع أباً رؤوفاً، وقائداً أميناً. نشأ عبد القادر في كنف هذا الوالد الكريم الذي أحاطه بكل عناية لما توسم فيه من علامات النجابة. فما إن بلغ الرابعة من عمره حتى ألحقه بمدرسته حيث تعلم مبادىء القراءة والكتابة. ثم قرأ على الشيخ أحمد بن طاهر القرآن والحديث وأصول الشريعة، كما درس الرياضيات والجغرافية والتاريخ. ثم أرسله والده إلى مدرسة وهران حيث تعلم مبادىء اللغة، ودرس آراء أبي الفداء المسعودي وابن خلدون، واطلع على العلوم المستحدثة، وتعمق في دراسة الدين. ونال شهادة حافظ التي خولته ترتيل القرآن في الجوامع والإحتفالات. وفي عام ١٢٣٩هـ/ ١٨٢٣م عاد

(١) را: محمود، أبو يزيد البسطامي، ص ١٢٤؛ فروخ، تاريخ الأدب ٥/ ٦٤٥؛ الزركلي، الأعلام ٤/ ٩.

إلى زاوية قريته حيث انصرف إلى حفظ القرآن الكريم بكامله ومطالعة كتب الجغرافية والفلسفة واللغة والشعر والطب. . . كما حبب إليه الإبتعاد عن مباهج الدنيا وزخرفها، وانصرف إلى التأمل الديني الهادىء، إلى جانب إتقانه لفنون القتال.

وفي عام ١٢٤٢هـ/ ١٨٢٦م إصطحب والده لأداء فريضة الحج وزيارة موطن الوحي، فمرّا بتونس، فمصر، ووصلا مكة المكرمة عام ١٢٤٣هـ/ ١٨٢٧م. ثم انتقلا إلى زيارة قبر النبي ﷺ. وبعدها توجها إلى دمشق حيث استمع الأمير عبد القادر إلى أقوال الفقهاء، وشروح العلماء، وحضر حلقات تفسير القرآن في الجامع الأموي. ثم توجه مع والده إلى بغداد عبر تدمر، فأقاما فيها أكثر من ثلاثة أشهر في دار قاضيها محمد زكريا. وخلال إقامتهما ببغداد سلكا الطريقة القادرية، وكانا يزوران ضريح الشيخ عبد القادر الجيلاني. ثم قفلا عائدين إلى موطنهما عبر مكة فطرابلس الغرب فتونس. وفي يوم ١٣ حزيران ١٢٤٦هـ/ ١٨٣٠م قامت فرنسة بمهاجمة الجزائر، والنزول بمنطقة سيدي فرج، ثأراً لقنصلها الذي أساء الأدب في حضرة داي الجزائر بردّه الفظّ على الداي، الأمر الذي جعل الداي يصفعه بمروحة كانت بيده، وذلك يوم عيد الفطر ١٢٤٦هـ/ ٢٧ نيسان ١٨٣٠م.

وعندما احتل الفرنسيون بعض المدن الجزائرية، قاومهم والد الشيخ عبد القادر، لكنه لم ينجح في زحزحتهم عن مواقعهم، عندئذٍ أجمعت القبائل الجزائرية على مبايعة الأمير عبد القادر بالسلطنة، ولقبوه بناصر الدين، وطلبوا إليه أن يخوض بهم معارك البطولة والجهاد، وذلك عام ١٢٤٨هـ/ ١٨٣٢م. فأخذ الأمير يحث السكان على الطاعة والإستعداد للقتال، والتقيد التام بتعاليم الإسلام. وكان كثير النشاط والحركة بين القبائل الجزائرية التي وحدت كلمتها تحت إمرته، ونبذت خلافاتها لحماية البلاد والدفاع عنها ضد المستعمرين الفرنسيين.

والواقع أن اختيار الأمير لهذا المنصب الجهادي الكبير قد تمّ لعدة أسباب أهمها: أنه سليل بيت شريف قدم الكثير من التضحيات، ولما تحلى به الأمير من

جرأة وشجاعة وإقدام وبسالة ظهر بعضها في المعارك التي خاضها تحت لواء والده. أضف إلى ذلك تضلعه في الأمور الدينية، وانضواء مختلف رجالات الطرق الصوفية تحت قيادته الحكيمة. وهؤلاء الصوفية كانوا أعداداً غفيرة بين صفوف الجزائريين.

وأول عمل قام به الأمير هو إخضاع القادة المحليين الذين رفضوا الإذعان لأوامره بتحريم التعامل مع الفرنسيين. ثم بدأ في منازلة الجيوش الفرنسية دفاعاً عن أرض الوطن. وكان معه نفر قليل من أصحابه المجاهدين الذين تمثلت فيهم الشجاعة والبطولة في أسمى المظاهر. وما لبث أن زاد عددهم على مر الأيام حتى ألَّفوا جيشاً نظامياً ألحق عدة هزائم بالفرنسيين؛ لا سيما معركة المقطع في ٢٨ حزيران ١٢٥١هـ/ ١٨٣٥م حيث هزم الأمير الجيش الفرنسي هزيمة نكراء؛ الأمر الذي حدا بالوزارة الفرنسية إلى اعتبار تعاظم سيطرة الأمير تحدياً للشعور الوطني. مما يدل على امتعاضها وحنقها الشديد عليه.

وكان الأمير يعتمد في تسليح جيشه على ما يستولي عليه من أسلحة العدو؛ لذلك أخذ يرسل النداء تلو النداء للأمة الإسلامية قاطبة حتى تمد له يد العون والمساعدة مالياً وبشرياً وعدة. لكن المساعدات التي قُدمت إليه كانت مخجلة جداً، يندى لها الجبين.

واستمرت المعارك زهاء خمس عشرة سنة، وكانت تتراوح بين نصر وهزيمة وسجال. لكن الأمير استطاع أن يقض مضاجع المستعمرين الفرنسيين، ويزلزل الأرض تحت أقدامهم، وكان شوكة في حلقهم، يبين لهم أن احتلال قطر مسلم ليس بالأمر السهل الهيّن. ولقد تمكن الأمير من الإستيلاء على مقاطعة وهران، وقسم كبير من مقاطعة الجزائر، وقد سلمت له فرنسا بذلك؛ فجعل عاصمته المعسكر، وابتدأ بإنشاء حكومة عصرية، وضرب نقوداً سماها بالمحمدية، وأنشأ معامل للأسلحة والأدوات الحربية، وملابس للجند. لكن فرنسا نقضت الإتفاق، وعادت الحرب من جديد بين الطرفين بين ١٢٥٥ ـ ١٢٥٩هـ/ ١٨٣٩ ـ ١٨٤٣م. وبعد سقوط الحصون الوطنية، لجأ الأمير إلى مراكش، ونفخ فيها روح النضال. فلما ضرب الفرنسيون ثغري طنجة ومغادور (الصويرة) اضطر

السلطان المراكشي إلى طلب الصلح والتخلي عن مساندة الأمير عبد القادر الذي سلم نفسه للفرنسيين عام ١٢٦٤هـ/ ١٨٤٧م مشترطاً السماح له بالذهاب مع أسرته إلى الإسكندرية أو عكا. ومما تجدر الإشارة إليه أن الأعداء قد أكرموه لشجاعته وشهامته ومروءته.

ظل الأمير في فرنسة حتى عام ١٢٦٩هـ/ ١٨٥٢م حيث أخلي سبيله على أن لا يعود إلى الجزائر، فاستقر في دمشق. حيث اهتم بدراسة التصوف دراسة معمقة، وبدأ بنشر وشرح وتفسير الفتوحات الملكية للشيخ محيي الدين ابن عربي. كما ألّف عدة كتب في التصوف أشهرها كتاب «المواقف» الذي بيّن فيه وجهة النظر الصوفية في مختلف الموضوعات.

وفي عام ١٢٧٧هـ/ ١٨٦٠م وعلى أثر الحوادث المؤسفة بين المسلمين والنصارى في جبل لبنان وبعض أنحاء سورية، حمى الأمير وأبناؤه نصارى دمشق من اعتداء الغوغاء والجهلة.

وبعد حياة حافلة بالنضال والجهاد توفي الأمير بدمشق عام ١٣٠٠هـ/ ١٨٨٣م؛ وبذلك أسدل الستار عن أمير مجاهد من كبار قادة الحرب والجهاد ومن كبار الصوفية «حارب الإستعمار في الجزائر، وفعل بإيمانه القوي وصوفيته العميقة الأعاجيب في الشجاعة والإقدام» وقاد جهاد الشعب الجزائري البطل ضد المستعمرين الغاصبين[1].

٣٥ ـ عبد القادر بن مسعود

ولد في قرية الفجيج بمنطقة الوادي بفزان حوالي عام ١٣٢٤هـ/ ١٩٠٦م من أسرة مشهورة بالعلم والتقوى. حفظ القرآن بقريته، ثم انتقل إلى طرابلس الغرب

(١) را: محمود، إبراهيم بن أدهم، ص ١٢ ـ ١٣؛ محمود، أبو يزيد البسطامي، ص ٥٨ ـ ٥٩؛ النبهاني، جامع كرامات ٢/ ٢١٧؛ أحمد عطية الله، القاموس الإسلامي ١/ ٤٤٧ ـ ٤٤٨؛ الزركلي، الأعلام ٤/ ٤٥ ـ ٤٦؛ أديب حرب، التاريخ العسكري والإداري للأمير عبد القادر الجزائري (الجزائر ١٩٨٣) ص ٧٠ ـ ٣٨٥؛ الريحاني، الموسوعة العربية، ص ٢٦٧؛ القشاط، جهاد الليبيين، ص ٩٩؛ البغدادي، هدية العارفين ١/ ٦٠٥. كحالة، معجم ٥/ ٣٠٤؛ عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام (بيروت ١٩٨٣) ٤/ ٥٩ وما بعدها؛ كرد علي، خطط الشام ٣/ ٨٩ ـ ٩٠.

حيث أتم تعليمه الديني بزاوية ميزران، ثم عاد إلى فزان حيث تولى على التوالي الإمامة في عدة مساجد بالمنطقة؛ مسجد أوباري ومسجد جرمة بالوادي، وأخيراً إمامة مسجد أبي قدقود بالشاطيء. كان مقدماً للزاوية القادرية. جمع حوله مجموعة من الأتباع وبدأ يخطط للهجوم على الفرنسيين في قلعة القاهرة بسبها. وفي ليلة ١٧ ـ ١٨ شعبان ١٣٦٨هـ/ ١٩٤٨م قام بالهجوم على القلعة، وسيطر عليها لعدة ساعات انتهت باستشهاده مع سبعة عشر مجاهداً[1].

٣٦ ـ عتبة الغلام

كان معاصراً لمخلد بن الحسين.

سمي بالغلام لأنه كان في العبادة كأنه غلام رهبان، لا لصغر سنه. اشتهر بكثرة عباداته ورياضاته وحزنه شبه الدائم. كان يأوي إلى المقابر والصحارى والسواحل فيقيم فيها، فإذا كان يوم الجمعة دخل البصرة فيشهد الجمعة، ثم يأتي إخوانه فيسلّم عليهم. كانوا يشبّهونه في الحزن بالحسن البصري. نزل حصن المصيصة للدفاع عن ديار المسلمين، ثم سار مع جموع المجاهدين حتى وصلوا إلى أدنه (أضنة) بتركية فرأوا آثار العدو، فطلب قائد المجاهدين بعض المتطوعين لتتبع آثار الأعداء، فكان عتبة أول المتقدمين. وبالفعل فقد قام على رأس فرقة صغيرة من المجاهدين يتتبع الأثر، فخرج عليهم الروم وجرت بين الفريقين معركة غير متكافئة. وبالرغم من كثرة الأعداء وتزاحمهم على عتبة فقد أبلى البلاء الحسن. واستشهد مع رفاقه ما عدا واحداً تمكن من الإفلات.

ولما وصلت جحافل المجاهدين إلى مكان المعركة، تفقدوا القتلى فإذا بعتبة وقد أصيب بسبع طعنات في صدره؛ وقد سلبه الأعداء حاجياته وملابسه، فقام رفاقه بدفنه هناك.

كان كثير التهجد ليلاً، دائم المناجاة «سيدي إن تعذبني فإني أحبك، وإن تعفُ عني فإني أحبك». كان يلبس لباس الشعر ما عدا يوم الجمعة حيث كان

(١) را: القشاط، جهاد الليبيين، ص ٢٥٤ ـ ٢٥٥.

يلبس أفخر الثياب، وكان يصوم معظم الأيام. وكان له بيت مغلق؛ فلما مات فتحوه فوجدوا فيه قبراً محفوراً[1].

٣٧ ـ عثمان بن أبي بكر دقنة

من أمراء الدراويش في السودان، ومن قوادهم الأشداء. ولد عام ١٢٥٣هـ/ ١٨٣٧م بسواكن، وفيها نشأ وتعلم. تعاطى التجارة أولاً، وحصّل منها ثروة واسعة. ولما استولت حكومة السودان على أمواله وأملاكه قصد القاهرة، يشكو إلى الخديوي اسماعيل ما حل به، فلم يلتفت إليه. في تلك الأثناء قامت ثورة مهدي السودان في النيل الأبيض، فرحل إليه الشيخ عثمان وسلك طريقته الصوفية وبايعه. وولّاه المهدي السودان الشرقي، فقاتل الجيوش المصرية والإنكليزية وانتصر عليها وأسر الكثيرين. وبعد موت المهدي، والى عثمان خليفته التعايشي؛ واستمر في جهاده ضد الإنكليز إلى أن خانه أحد أقربائه، فأسلمه إلى أعدائه عام ١٣١٨هـ/ ١٩٠٠م فحُمل أسيراً إلى دمياط، ثم إلى وادي حلفا حيث مات في سجنه عام ١٣٤٥هـ/ ١٩٢٦م. كان عثمان موصوفاً بالمقدرة والدهاء وسعة الحيلة في الحروب، سريع الحركة، شديد الإحتمال للمشاق، كما كان له علم بالتفسير والحديث، وكان يحسن العربية والتركية والبجاوية (لغة السودان)[2].

٣٨ ـ عثمان المسعودي المصري

أقام ببعلبك حيث بنى له عبد المولى المهندس زاوية. وبعد إقامته مدة طويلة، وذيوع صيته، وانتشار أمره كثر أتباعه ومريدوه. وفي عام ٦٩٩هـ/ ١٢٩٩م هاجم غازان محمود بعلبك بجيش كبير من التتار، وضيّق الخناق على المدينة، فتقهقر المسلمون وخافوا، وكاد يفت في عضدهم، لاسيما بعد زحف التتار على

(١) را: الشعراني، الطبقات ١/ ٤٧؛ الشرباصي، فدائيون، ص ٣٦٠؛ الأصفهاني، حلية الأولياء ٦/ ٢٢٦ ـ ٢٣٥.
(٢) را: الزركلي، الأعلام ٤/ ٢٠٥.

بعلبك بخمسة وعشرين ألفاً ووصولهم إلى أبوابها الخمسة، عندئذٍ انطلق الشيخ عثمان مع مريديه، يحمّس البعلبكيين ليدافعوا عن مدينتهم، ويستبسلوا؛ وهكذا فعلوا حتى رحل التتار وفكوا الحصار[1].

٣٩ ـ علي بن بكّار الشامي

قال عنه أبو نعيم الأصفهاني: «المرابط الصبّار، المجاهد الكرار. كان إذا جنّ عليه الليل خاطب فراشه: والله إنك لطيب، والله إنك لبارد، والله لا علوتك ليلتي» فكان يمضي ليلته في صلاة وتهجّد. وكان يعتني بفرسه كثيراً؛ لأنها وسيلته للجهاد. سكن المصيصة مرابطاً لله تعالى. وكان مع المجاهدين الزاهدين: إبراهيم بن أدهم، مخلد بن الحسين، أبو إسحاق الفزاري...

في إحدى الغزوات أصابته طعنة في بطنه فخرجت أمعاؤه على قربوس سرجه، فردها إلى بطنه وشدها بعمامته، وقاتل حتى قتل ثلاثة عشر من الأعداء. إستشهد بالمصيصة عام ١٩٩هـ/ ٨١٤م[2].

٤٠ ـ علي بن سليمان بن أبي العز الخباز

كان زاهداً صالحاً، كبير القدر وكانت له زاوية ببغداد وتلاميذ ومريدون كثيرون. تتلمذ على الشيخ علي بن أبي بكر بن إدريس اليعقوبي الزاهد، وقد حدّث عنه.

كان الخليفة العباسي المستنصر بالله يزوره في زاويته، ويعتقد بكراماته. استشهد دفاعاً عن ديار الإسلام، وذوداً عن دار السلام، وذلك عندما دخل التتار بغداد في محرم ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م وأعملوا فيها السلب والنهب، والخراب والتدمير. ويقال: إنه أُلقي بجثته على باب زاويته ثلاثة أيام، حتى أكلت الكلاب من لحمه.

(١) را: النبهاني، جامع كرامات الأولياء ٢/ ٢٩٢ ـ ٢٩٣.
(٢) را: أبو نعيم الأصفهاني، حلية الأولياء ٩/ ٣١٧ ـ ٣١٨؛ النبهاني، جامع كرامات ٢/ ٣١١.

من أشهر تلاميذه الدمياطي الذي حدّث عنه في معجمه[١].

٤١ ـ علي بن عبد الله الشاذلي (أبو الحسن)

مؤسس الطريقة الشاذلية، ولد عام ٥٩٣هـ/ ١١٩٦م في إحدى قبائل غمارة القريبة من مدينة سبته بأقصى الشمال المغربي. بعد أن تتلمذ على الشيخ عبد السلام ابن مشيش، توجه إلى تونس بناء على أمر شيخه. ثم توجه إلى مصر حيث ساح الجهاد مفتوح على مصراعيه، وحيث العدو متربص بالمصريين، ومهددهم في عقر دارهم. وقد احتل الشاذلي في مصر مرتبة عظمى، وذلك بفضل مواقفه الإجتماعية والسياسية. وكان يحضر مجالسه كبار العلماء وعلى رأسهم شيخ علماء مصر ومجاهديهم عز الدين بن عبد السلام وابن دقيق العيد.

لقد رأى الشاذلي أن التصوف ليس بالرهبانية، ولا بأكل الشعير والنخالة... وإنما هو الصبر على الأوامر، واليقين في الهداية؛ وجوهره ليس في الرسوم والأشكال وإنما هو في النوايا والأعمال، وأن خير العَمَل ما عم نفعه، وعمل على وحدة المسلمين. لذلك ثار الشاذلي على المعنى السطحي للتقشف والزهد، كذلك عارض المفهوم الجامد للأوراد، وانتقد كثرة وظائف الصوفية، ولم يحفل بالكرامات الحسية، واعتبر أن من يلتزم بالأوامر وينتهي عن الزواجر هو الصوفي الحقيقي. كما نهى تلاميذه عن ترك أسباب العيش، لذلك كان يكره المريد المتعطل. وقد لخص دعوته الصوفية بالعبارة التالية: «إن طريق السير إلى الله تعالى ليست لها معالم في الملابس والمطاعم، وإنما معالمها في اتباع الكتاب والسُّنة وسلامة القلب من الأمراض الباطنية. كل علم تسبق إليك فيه الخواطر، وتميل النفس وتلتذ به، فارم به وخذ بالكتاب والسُّنة». لذلك أحبه الناس وأقبلوا على السلوك على يديه، فكان إذا ركب تمشي جماهير الصوفية حوله، وتنشر فوق رأسه الأعلام وتضرب الكؤوسات بين يديه. وهكذا نجد أن الشاذلي قد ترك بلاد المغرب الأقصى واستوطن مصر ليبث فيها روحاً جديدة، تقوم على العمل والرجوع إلى الإسلام الصحيح الذي يحض على الجهاد والقتال في سبيل الله لرد

(١) را: ابن رجب، كتاب الذيل على طبقات الحنابلة ٢/ ٢٦٣ ـ ٢٦٤.

هجمات المغيرين من الصليبيين. في هذه الفترة كانت مصر تشهد هجمة شرسة من الصليبيين الذين كانت تراودهم فكرة الإستيلاء على بلاد المسلمين كافة، وذلك بعد أن جعلوا من فلسطين موطىء قدم لهم للإنقضاض على الأقطار الإسلامية شرقاً وشمالاً وجنوباً. ففي شهر شعبان ٦١٦هـ/ ١٢١٩م حاصروا دمياط حصاراً شديداً، فانتشرت الأوبئة بين الأهالي، وعجز ملك مصر آنذاك «الكامل» عن نجدتهم، فطلبوا من الصليبيين «الأمان وأن يخرجوا منها بأهلهم وأموالهم. وحلفوا لهم على ذلك.

ففتحوا لهم الأبواب، فدخلوا وغدروا بأهلها، ووضعوا فيهم السيف قتلاً وأسراً، وباتوا في الجامع يفجرون بالنساء، ويغتصبون البنات، وأخذوا المنبر والمصحف وبعثوا بهما إلى الجزائر».

وحولوا الجامع إلى كنيسة. «وتسارعت الفرنج من كل فج عميق وشرعوا في تحصينها، وأضحت دار هجرتهم، وترجوا أخذ ديار مصر، وأشرف الإسلام على الإنكسار والدمار». وفي شهر رجب عام ٦١٧هـ/ ١٢٢٠م تمكن الملك الكامل من كسر شوكة الصليبيين وقتل أكثر من عشرة آلاف منهم فانهزموا إلى دمياط التي ما لبثت أن عادت إلى حظيرة الإسلام. لكن الحقد الصليبي، والطمع بأرض الكنانة، دفعا بالصليبيين المستعمرين إلى مهاجمتها في ربيع الأول ٦٤٧هـ/ ١٢٤٩ك براً وبحراً، ففرت منها حاميتها، وتملكها الفرنج دون قتال يُذكر. وكان السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الصالح في المنصورة. وفي ليلة النصف من شعبان من السنة نفسها توفي السلطان؛ لكن لضرورة المعركة ولحسن سير الحرب كتم خبر موته. وبدأت المناوشات بين الفرنجة والمصريين. في تلك الأثناء تطلعت قلوب وأنظار علماء مصر الصادقين نحو المنصورة، يتوسلون إلى المولى عزَّ وجلَّ أن ينصر المجاهدين، ويرد كيد الصليبيين. على أن الشاذلي والعديد منهم لم يكتفوا بذلك، بل أرادوا أن يكونوا في مقدمة المناضلين «فقد حرص الشاذلي على أن يحضر معارك الحرب الصليبية الفاصلة في تلك السنة؛ رغم كونه كان قد كف بصره، ولم يمنعه هذا المانع من أن يرحل من الإسكندرية، محل إقامته، إلى مدينة المنصورة التي كانت قاعدة إنطلاق الجيوش الإسلامية، ليشارك بجهوده في تلك الحرب، فضرب بذلك مثلاً للصوفية

الصادقين». وقد شاركه في رحلته تلك تلاميذه ومريدوه. وفي المنصورة قسم الشاذلي وقته بين حضّ الجيوش على الجهاد والقتال في سبيل الله ذاكراً ما أعده الله تعالى للشهداء والمجاهدين في سبيله وبين دعاء الله تعالى ليمُنَّ بالنصر على المؤمنين، وبين مجالسة علماء مصر والتنسيق معهم في هذه المعركة الفاصلة:

«قال ابن عطاء الله؛ أخبرني الشيخ العارف مكين الدين الأسمر قال: حضرت المنصورة في خيمة فيها الشيخ الإمام مفتي الأنام عز الدين بن عبد السلام والشيخ مجد الدين علي بن وهب القشيري المدرس والشيخ محيى الدين بن سراقة والشيخ مجد الدين الأخميمي والشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنهم أجمعين، ورسالة القشيري تقرأ عليهم. وهم يتكلمون والشيخ أبو الحسن صامت إلى أن فرغ كلامهم فقالوا يا سيدي نريد أن نسمع منك. فقال: أنتم سادات الوقت وكبراؤه وقد تكلمتم، فقالوا لا بد أن نسمع منك. قال فسكت الشيخ ساعة ثم تكلم بالأسرار العجيبة والعلوم الجليلة. فقال الشيخ عز الدين، وقد خرج من صدر الخيمة وفارق موضعه: إسمعوا هذا الكلام الغريب القريب العهد من الله تعالى».

وكان لوجود هذه الكوكبة من العلماء العاملين الأثر الحميد في نفوس المدافعين ورفع روحهم المعنوية. فلما بدأت الملحمة الكبرى حمل الصليبيون حملة عنيفة على المنصورة ووصلوا إلى دهليز السلطان؛ لكن المسلمين المجاهدين الذين يقفون وراء علمائهم الأبطال كروا على الصليبيين وقتلوا عدداً كبيراً منهم، وحصروهم، وقطعوا عنهم المدد. وبعد فترة عزم ملك الصليبيين، وهو ملك فرنسة لويس التاسع الملقب بالقديس لويس، على المسير في الليل وخفية إلى دمياط، فأفسح المسلمون لهم المجال، حتى إذا صاروا في وسطهم أطبقوا عليهم من كل جانب وأمعنوا فيهم تقتيلاً وتمزيقاً، وكسر أسطول المسلمين أسطول الأعداء. وانجلت المعركة عن هزيمة ساحقة للصليبيين فقد قُتل منهم أكثر من سبعة آلاف قتيل وأسر أكثر من عشرين ألفاً بينهم القديس لويس. بينما استشهد في هذه المعركة من المسلمين نحو مائة شهيد «وطلب ملك الفرنج الطواشي رشيد وسيف الدين الغمري، فأتياه وكلمهما في الأمان على نفسه وعلى مَنْ معه، فعقدا له الأمان، وانهزم جل الفرنج فحمل عليهم المسلمون ووضعوا فيهم السيف وغنم الناس مالاً لاينحصر. وركب ملك الفرنج حراقة والمراكب الإسلامية

محدقة به تخفق بالكؤوسات والطبول. وفي البر الشرقي الجيش سائر تحت ألوية النصر. وفي البر الغربي العربان والعوام. وكانت ساعة عجيبة». وعلى أثر هذه المعركة تقدمت جموع المسلمين نحو دمياط فاسترجعتها. وفر من تبقّى من الصليبيين خارج أرض الكنانة. أما قائد الحملة الصليبية لويس التاسع فقد وُضع في الدار التي كان ينزلها كاتب الإنشاء فخر الدين بن لقمان، ووكِّل به الطواشي صبيح المعظمي. وإلى ذلك يشير الشاعر جمال الدين يحيى بن مطروح:

«قلْ للفرنسيسِ إذا جئتَهُ   مقالَ صدقٍ عن قؤولٍ نصيح
أتيتَ مصراً تبتغي ملكَها   تحسبُ أنَّ الزمْرَ يا طبلُ ريح
وكلّ أصحابكَ أوردتَهم   بحسنِ تدبيرك بطنَ الضريح
خمسونَ ألفاً لا يُرى منهم   غيرَ قتيلٍ أو أسيرٍ أو جريح
وقلْ لهم إن أضمروا عودةً   لأخذِ ثارٍ أو لقصدٍ صحيح
دارُ ابنِ لقمانَ على حالِها   والقيدُ باقٍ والطواشي صبيح».

وكان لويس التاسع قد افتدى نفسه ببذل خمسمائة ألف دينار للمسلمين، ووعدٍ بأنه لن يعود مستقبلاً إلى المشرق العربي. لكنه، بعد إطلاق سراحه، حشد حملة وتوجه إلى تونس فكتب إليه أدباء دولة المستنصر:

«أفرنسيس تونسُ أختُ مصر   فتأهَّبْ لما إليه تصيرُ
لك فيها دارُ ابن لقمان قبرٌ   وطواشيُّك منكرٌ ونكيرُ».

وبالفعل فقد مات تحت أسوار تونس. وهذا يدل على أن الحروب الصليبية كانت إستعمارية الأهداف.

وهكذا فقد وجدنا هذا الصوفي الجليل الشاذلي في قلب المعركة: ترك بيته وأهله، وهبَّ مندفعاً ليساهم في النصر أو الشهادة، لم يمنعه كبر سن، وقد جاوز الستين، ولم يمنعه كف بصر، لأنه رأى النبي ﷺ في الرؤيا، فعرف بأن النصر قريب من المجاهدين، فانطلق يبشّر الجنود بالنصر المبين، وبالظهور على الأعداء ببشارة الرسول ﷺ.

كان الشاذلي يحج سنة ويرتاح سنة. وفي عام ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م توجه لأداء فريضة الحج مع بعض تلاميذه ومريديه، وفي صحراء عيذاب على الساحل المصري للبحر الأحمر، توفي هذا المجاهد ودفن هناك بعد أن ربى الألوف من

الصوفية الشاذليين، الذين قاموا، بدورهم، بتربية الملايين على تعاليم شيخهم التي تدعو إلى التمسك بالكتاب والسُّنة، وتطهير القلب، وتزكية النفس، والحضّ على الجهاد والقتال في سبيل الله تعالى وحده. وسيفعل تلاميذه في معركة «وادي المخازن» بالمغرب العربي في القرن العاشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي ما فعله شيخهم في المنصورة من إذكاء الحماس، والتحريض على منافحة المستعمرين الغاصبين.

ولئن سمعنا بعض الأصوات التي تنتقد موقف حجة الإسلام «الغزالي» من الحروب الصليبية؛ فإن الشاذلي سلم بموقفه السابق من كل انتقاد، وما ذلك إلا لأنه كان يفهم التصوف بمفهوم آخر جديد، أو قل ينظر إليه بالمنظار الإسلامي السليم[1].

٤٢ ـ عمر بن سعيد تال

شيخ من مرابطي تورودو، من عشيرة التوكولور في فوتا في السنغال. ولد حوالي ١٢٠٩هـ/ ١٧٩٤م. وفي عام ١٢٤٣هـ/ ١٨٢٧م قصد مكة المكرمة لأداء فريضة الحج. وهناك سلك الطريقة التيجانية[2] على يد أحد مشايخها الذي عينه

(١) را: الصغير، إشكالية، ص ٢٧ ـ ٣٧؛ محمود، ابن أدهم، ص ١٠ ـ ١١؛ محمود، أبو يزيد، ص ٥٦؛ فروخ، التصوف، ص ٨٤؛ ابن كثير، البداية والنهاية ١٣/ ٩١ ـ ١٨٩؛ جوانفيل، القديس لويس، ترجمة حسن حبشي (القاهرة ١٩٦٨) ص ١٥٨؛ ابن الملقن، طبقات الأولياء، ص ٤٥٨ ـ ٤٥٩؛ دائرة المعارف الإسلامية ٩/ ٢٨٩؛ الحنبلي، شذرات الذهب ٥/ ٦٦ ـ ٢٧٩؛ اليافعي، مرآة الجنان ٤/ ٣١ ـ ٣٢ وص ١١٧ ـ ١١٨ و ١٤٢ ـ ١٤٦؛ الزركلي، الأعلام ٤/ ٣٠٥؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر «تاريخ أبي الفداء» (بيروت دار المعرفة) ٣/ ١٨٠ ـ ١٨٢؛ المقري، نفح الطيب ٢/ ٣٢٣ ـ ٣٢٤؛ الشعراني، الطبقات ٢/ ٤ ـ ١٢؛ الخوري، تاريخ حمص ٢/ ٢٢٦ ـ ٢٣١؛ البغدادي، هدية العارفين ١/ ٧٠٩ ـ ٧١٠؛ كحالة، معجم ٧/ ١٣٧؛ الكتبي، فوات الوفيات ١/ ٣٢١ ـ ٢٣٢؛ كرد علي، خطط الشام ٢/ ٨٢ ـ ٨٣ وص ١٠١.

(٢) الطريقة التيجانية: مؤسسها الشيخ أبو العباس أحمد بن محمد المختار، فقيه مغربي، ولد بعين ماضي بالجزائر عام ١١٥٠هـ/ ١٧٣٧م. ودرس بفاس ثم ذهب لأداء فريضة الحج. وعند عودته إلى المغرب مكث في القاهرة حيث سلك الطريقة الخلوتية على الشيخ كريم الدين الخلوتي، لكنه انفرد برأيه في التصوف. ثم رجع إلى فاس حيث بدأ بنشر طريقته (را: القشاط، جهاد الليبيين، ص ٢٥ ـ ٢٦).

خليفة للطريقة في السنغال ومالي والنيجر والتشاد. إنتقل إلى سوكوتو ومكث فيها سبع سنوات قبل أن يستقر في فوتا دجالون.

وفي عام ١٢٦٣هـ/ ١٨٤٦م عاد إلى قريته الأم على النهر، ودعا إلى الجهاد ضد الوثنيين، ثم سافر إلى دينغيراي. وما بين عامي (١٢٧١ ـ ١٢٨١هـ/ ١٨٥٤ ـ ١٨٦٤م) قاد مسيرة الجهاد الطويلة، فاحتل نيورو ومدين ثم السودان الغربي حيث هزم البامبار الوثنيين في سيغو والبيل المسلمين في حمد للاي.

والواقع أن جهاده بدأ منذ عام ١٢٦٩هـ/ ١٨٥٢م حيث سمع نداء يطلب منه أن يطهر الأمصار. وكان الشيخ عمر يعتكف ويسهر الليالي ذاكراً متهجداً. واستجابة منه لهذا النداء، أخذ على عاتقه إدخال الوثنيين في الدين، ورد منافقي ما سينا إلى الصراط المستقيم. كما اعتبر الإحيائيين كفرة وأشراراً، واعتبر البامبارا وثنيين بخسين ذوي أجسام نتنة لن تتنقى أبداً، فقتل الرجال واقتاد النساء وجعل الأطفال عبيداً ودمّر الأصنام. أما مسلمو ماسينا ودينا من البيل ومن رعية سيكو أمادو فقد عاملهم كمنافقين، لأنهم كانوا يشدون أزرهم بالبامبار الإحيائيين ضد التوكولور المؤمنين، لذلك لم يقتل جرحاهم ولكن اقتاد نساءهم أسرى.

وكان جيش الشيخ عمر يتألف من خمسة فيالق، ثلاثة من التوكولور، عشيرته والبقية من الذين دخَلوا في الإسلام من الشعوب الأخرى لا سيما من أسرى الحرب السابقين. وقد قدر العدد الفعلي للجيش بـ ١٢ ألف رجل، وفي أحسن الحالات كان العدد يصل إلى ٣٠ ألفاً. هذا الجيش كان مزوداً ببنادق رصاص صنعها عمال الشيخ وبمدفعي حصار. وكان رماة البنادق من التوكولور يحاربون راجلين، وراشقو السهام راكبين. وقد تمكن الشيخ عمر بفضل هذا الجيش من إخضاع المخالفين، ونشر الإسلام بين الوثنيين، واحتلال شرقي موريتانيا، والإصطدام بالفرنسيين في عدة معارك في غرب إفريقيا. وقد امتدت سلطته من تنبكتو إلى فوتا، وبلغت البلاد درجة كبرى من الأمن والطمأنينة، حتى أن المرأة كانت تضع إزارها وتمضي من غير أن يتعرض لها أحد بسوء. لقد كان الشيخ عمر أكبر مناوىء للفرنسيين الدخلاء: ففي عام ١٢٧٢هـ/ ١٨٥٥م قال «ليس البيض سوى تجار، فليجلبوا البضائع على مراكبهم، وليدفعوا لي جزية كبيرة،

عندها أعيش معهم بسلام؛ لكنني لن أسمح بأن يقيموا منشآت على الأرض، أو أن ينزلوا سفناً حربية في النهر».

والواقع أن الشيخ كان يهدف إلى تحقيق ثلاثة أمور: توحيد البلاد وأسلمة السودان الغربي وتصفية مشاريع الاستعمار الفرنسي الذي كان العقبة الرئيسية في طريق هذه الأهداف. كما أن مقاومة الإحيائيين للأسلمة أضعفت المقاومة ضد الفرنسيين.

كما أخذ الشيخ على عاتقه نشر الطريقة التيجانية في وسط وغرب إفريقيا. وقد نشر رسماً يمثل دوائر بعضها داخل بعض، تتدرج نحو المركز راسمة حقيقة النبي ﷺ، والأنبياء وشيوخ الطريقة التيجانية، والأولياء والمريدين وخلفائهم. ويقول: «إن الأولياء الأحدث عهداً يتفوقون على القدماء كما تفوق النبي محمد ﷺ، خاتم الأنبياء، على إبراهيم وموسى وعيسى». وكان يعتبر أن «يد الشيخ هي بديل يد النبي ﷺ، ويد النبي بديل يد الله تعالى». ولما رأى شيخاً في خلوة روحية ويعتاش من حسنات المؤمنين قال: «هؤلاء الذين يحسنون إليك أفضل منك لأن صلاتك عالة على عملهم».

وفي عام ١٢٨٢هـ/ ١٨٦٥م قُتل الشيخ في تنبكتو، فخلفه ابنه الشيخ أحمد والملقب بالعربي. وعندما استولى الفرنسيون على باندياغارا عام ١٣١١هـ/ ١٨٩٣م هاجر أحمد إلى سوكوتو مع عشرة آلاف من التوكولور، وقد أصبح بعد ذلك ملكاً على مالي.

ومهما يكن فإن الشيخ عمر بطل مسلم من مناهضي الإستعمار[1].

٤٣ ـ عمر المختار بن عمر بن فرحات

من عائلة غيث، من قبيلة المنفة، إحدى قبائل برقة. ولد بالدفنة، بمنطقة البطنان بليبيا، حوالي عام ١٢٧٨هـ/ ١٨٦١م. تأدب على والده أولاً، ثم أرسله

(١) را: فنسان، الإسلام في إفريقيا، ص ١٠٣ ـ ١٤٤ وص ٣٢٨؛ القشاط، جهاد الليبيين، ص ٢٧ وص ١٠٢؛ دائرة المعارف الإسلامية ٧/٢٢٨ ـ ٢٢٩.

والده إلى زاوية جنزور ليأخذ من شيخها حسين الغرياني القرآن الكريم ومباديء اللغة العربية. وبعد وفاة هذا الوالد انتقل عمر مع أخيه إلى زاوية الجغبوب السنوسية حيث تتلمذ على عدة مشايخ منهم: الزروالي المغربي الجواني الذي أخذ عنه القرآن والعلوم المتصلة به، فالح بن محمد بن عبد الله الظاهري صاحب التعليقات على كتاب المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب. ولم تقتصر دراسة الشيخ عمر على العلوم الدينية وحدها؛ بل تعدتها إلى تعلم المهارات والحرف اليدوية كالنجارة والحدادة والبناء والزراعة. كما تلقى تدريباً عسكرياً على فنون القتال حيث برع براعة مدهشة. وقد كسب بفضل جهده وما حباه الله تعالى به من تواضع وبساطة وزهد ما جعل أفئدة الناس تأوي إليه وترتاح عنده. وكان قومه ينادونه دائماً بـ «سيدي عمر»، الأمر الذي قرّ به من شيخ السنوسية آنذاك الشيخ المهدي الذي أعجب بكفاءة ومقدرة عمر المختار وقال: «لو كان عندنا عشرة مثل عمر المختار لاكتفينا بهم». لأن الشيخ عمراً كان من الأشخاص القلائل الذين يعوّل عليهم في الملمات والأوقات العصيبة، لما تمتع به من عمق إيمان، وصدق وشجاعة، وإخلاص، ورفض لكل أنواع الظلم والقهر والإستبداد... إلى غير ذلك من الصفات الحميدة والخلال الكريمة التي بثّها الإسلام في أتباعه. كان يختم القرآن الكريم كل اسبوع مرة واحدة، وكان يمضي معظم ليله متهجِّداً، تالياً للقرآن، وعاش عيشة القناعة والكفاف.

أقام الشيخ عمر أمتن الصلات مع عدد كبير من مشايخ ورؤساء القبائل والشخصيات البارزة في المدن وشيوخ الطرق الصوفية، مما سيكون له أبلغ الأثر في دفع حركة الجهاد التي سيقودها.

وفي عام ١٣١٣هـ/ ١٨٩٥م عُين شيخاً لزاوية القصور التابعة لقبيلة العبيد بالجبل الأخضر. وكانت هذه القبيلة مشهورة بعنادها وقوة شكيمتها؛ لكن الشيخ استطاع أن يحقق الأمن والإستقرار في تلك المنطقة، وأن يقضي على أسباب النزاعات القبلية، مما زاد في احترام الناس له، وفتح أمامه آفاق العمل السياسي والعسكري في ليبيا وتشاد والسودان؛ فشارك المهدي السنوسي عام ١٣١٧هـ/ ١٨٩٩م في مقاومة التقدم الفرنسي في السودان الأوسط والشرقي وفي تشاد. وكان السنوسيون قد أقاموا العديد من الزوايا التي شملت: كورو،

تبستي، بركو، أندي، دارفور، وادي، كانم، أزقر، بقرمي. . . هذه الزوايا كانت مراكز إسلامية لنشر الدعوة في تلك البقاع، وللدفاع عنها ضد هجمات المستعمرين والطامعين.

ظل الشيخ عمر يقاوم تقدم الفرنسيين في التشاد والنيجر حتى عام ١٣٢٤هـ/ ١٩٠٦م حيث استدعاه الشيخ أحمد الشريف السنوسي الذي استلم مشيخة زوايا السنوسية بعد وفاة المهدي السنوسي ١٣٢٠هـ/ ١٩٠٢م.

وفي عام ١٣٣٠هـ/ ١٩١١م وقع العدوان الإيطالي على ليبيا، فعقد الشيخ أحمد الشريف إجتماعاً مع أعوانه من السنوسيين لتدارس الأمر، والنظر في إمكانية المقاومة. وعلى الرغم من القوة الهائلة التي كانت تتمتع بها إيطاليا، وإمكانيات الليبيين الضئيلة، فإن الشريف رأى في صد العدوان ومقاومة المعتدي ذوداً عن الدين وعن الوطن، ودفاعاً عن النفس والأرض؛ وأن الجهاد واجب مقدس متى انتهكت حرمة المسلمين؛ لذلك أعلن الجهاد المقدس، وأصدر أوامره لمشايخ الزوايا بأن يقاتلوا المستعمرين، ويقفوا في وجه المعتدي بأي وسيلة متاحة، وتوّعد وأنذر وتبرّأ من كل مَنْ يتخلف عن الجهاد أو يمالىء العدو أو يركن إليه. وقام عمر المختار بحمل هذه الأوامر إلى المعنيين في برقة والجبل الأخضر. وسرعان ما قام هو نفسه بالتعبئة العامة، طالباً تجنيد كل من كان صالحاً للجهاد، فاستجاب له الناس، وتوجه بجموع المجاهدين لملاقاة العدو ومحاصرته، ومنع تقدمه وبالتالي مهاجمته لطرده من أرض الوطن. وقد ظهرت مواهبه ومقدرته العسكرية في المعارك التي خاضها مع بعض الضباط الأتراك المدافعين عن التراب الليبي ضد الهجمة الإيطالية؛ فقد أُعجب هؤلاء الضباط بعمر المختار وبشجاعته، وبالآراء التي كانت تصدر عنه والتي قد لا تصدر إلا عن القواد الممتازين الذين تخرجوا من أشهر الكليات العسكرية.

إتخذ عمر المختار مركزه حول مرتفعات بنينة جنوبي بنغازي، واشتبك مع الطليان في عدة معارك، كما هاجم بنغازي نفسها. ومن المعلوم أن ليبيا كانت آنذاك تحت حكم العثمانيين، فلما نزل الطليان في بنغازي أرسلت تركيا عدداً من الضباط بقيادة أنور بك لقيادة الجنود العثمانيين في مقاومة المستعمرين. ولما تسلم

الضابط التركي عزيز علي المصري ومعاونه سليمان العسكري منطقة بنغازي، لم يتوان عمر المختار عن وضع نفسه وإخوانه المجاهدين تحت إمرة هذا الضابط؛ لأن هدفه واضح وجليٌ ألا وهو توحيد الجهود لإخراج الطليان من أرض الوطن.

لكن في ١٨ تشرين أول ١٣٣١هـ/ ١٩١٢م عقدت معاهدة لوزان بين تركيا وإيطاليا، وقد نصت على انسحاب الأتراك من طرابلس وبرقة تاركين الليبيين وحدهم في مواجهة المستعمرين. وبالرغم من إعلان بعض الليبيين عن استعدادهم للخضوع لحكم الطليان، فإن غالبية الشعب الليبي، بزعامة الشيخ أحمد الشريف يعاونه عمر المختار، وقفوا مجاهدين، مدافعين عن الدين والوطن. وفي الوقت الذي انهزم فيه الليبيون في معركة جندوبة قرب طرابلس، كان الشريف مع عمر المختار يحققان نصراً مؤزراً في معركة سيدي القرباع، يوم الجمعة ١٦ أيار ١٣٣٢هـ/ ١٩١٣م. وكان لهذا الإنتصار الأثر الطيب في نفوس الليبيين؛ إذ تقاطرت جموع المتطوعين إلى المعسكرات لحمل راية الجهاد، ورفض الوجود الإستعماري، وقتال العدو حتى النصر أو الشهادة، على الرغم من الجحافل الجرارة التي حشدها الطليان، وبالرغم من الأسلحة الفتاكة التي أعدوها لقتال الشعب، وبالرغم من انسحاب الأتراك من ساح القتال، في وقت كان فيه المجاهدون بأشد الحاجة إلى الأسلحة والعتاد.

لقد كان عمر المختار رجل المواقف الصعبة والظروف العصيبة. فبعد أن شب الخلاف بين الأتراك المنسحبين، وبين قبيلة المنفه بسبب رفض الأتراك تسليم الأسلحة للمجاهدين، وكاد الأمر يتطور بين الفريقين إلى معارك عنيفة، تدخل عمر المختار وفضَّ هذا الخلاف بماله من مكانة عزيزة عندهم جميعاً.

لذلك قام الشريف بتعيينه قائداً عسكرياً للجبل الأخضر. وقد رسم عمر المختار خطته على الشكل التالي: الإلتزام بالدفاع أولاً ثم التربص بالعدو، حتى إذا خرج الطليان من مراكزهم انقض عليهم المجاهدون فأوقعوا بهم، وغنموا أسلحتهم وعتادهم وأدوات النقل. . . إلى غير ذلك من المعدَات التي كان المجاهدون بأمس الحاجة إليها. وسارت الأمور وفق هذه الخطة حتى اندلاع

الحرب العالمية الأولى آب ١٣٣٣هـ/ ١٩١٤م. في هذه الفترة، ونتيجة لانعدام الأمن في بعض المناطق، ولتردي الأوضاع الإقتصادية، بسبب القحط والمجاعة وانتشار الأمراض والأوبئة، ظهر بعض الأفراد والعصابات الذين كانوا يمارسون السلب والنهب، لكن المختار سيطر على زمام الأمور ولم يكن ليتساهل مع أحد من المجاهدين عندما يقوم بأعمال لا تنسجم مع مفهوم الجهاد وروحه، فكان يُنزل بهم العقوبات العادلة. وخلال سني الحرب حاول بعض الليبيين مهادنة الطليان لكن المختار مع المجاهدين الشرفاء وقفوا في وجههم وعارضوا الإتفاقيات المعقودة والمقترحة، وأخذوا في تعبئة القبائل لمحاربة الطليان، وكان للمختار الدور العظيم في استقطاب أكثر مشايخ القبائل وأعيان ووجهاء المدن والقرى لتوحيد البلاد، ورصّ الصفوف لطرد الجيوش الإيطالية من ليبيا. وهنا حاولت الدولة الإيطالية إستمالته بالمنصب والمال، لكنه أصم أذنيه، ورفض كل المحاولات التي استخدمت من أجل استدراجه إلى الخضوع والإستسلام، وظل وفياً للمبدأ الذي آمن به ونذر حياته من أجله ألا وهو: لا صلح، لا اعتراف بالعدو، والسبيل الوحيد لطرد الغزاة المستعمرين هو الحرب والجهاد حتى التحرير أو الشهادة.

في تلك الأثناء تسلم السلطة السيد إدريس السنوسي الذي حاول جهده ثني المجاهدين عن هدفهم، لكن دون جدوى. فلما رأى أن الفاشيست الذين استولوا على حكم إيطاليا عام ١٣٤١هـ/ ١٩٢٢م، قد بدأوا عملياتهم العسكرية ضد الليبيين، آثر الإنسحاب من الميدان فالتجأ إلى مصر. وبذلك عهدت الأعمال العسكرية والإدارية للشيخ عمر المختار. فقام بتنظيم معسكرات الجهاد، وجعل لكل منها قائداً ومجلس قيادة وإدارة مدنية. وكان كل معسكر مستقل عن الآخر، ولكنها جميعاً تخضع لقيادته. ثم توجه إلى مصر مع وفد من المجاهدين، لطلب المساعدة المالية والعسكرية من إخوانهم العرب والمسلمين. وفي القاهرة قابل الوفد السيد إدريس السنوسي الذي اعتذر عن تقديم أية مساعدة. وقد وصف عمر المختار هذا اللقاء: «إننا ذهبنا إلى مصر ولحقنا بالأمير إدريس، وطلبنا منه إغاثتنا ومساعدتنا بأي صفة كانت. فقال لنا: والله ما نقدر مساعدتكم بشيء، ودبِّروا أنفسكم، وعندكم، أخونا الرضا روحوا عنده.

فرجعنا من عنده ودموعنا على خدودنا، نتعثر في طريقنا، إنا لله وإنا إليه راجعون. ولكن نخبركم بأننا لما يئسنا من المساعدة توكلنا على الله ورجعنا إلى الوطن، وقطعنا على أنفسنا بأننا لا نسلم للعدو، وندافع عن أنفسنا وديننا ووطننا إلى آخر قطرة من دمائنا».

ولما عاد المختار إلى ليبيا إستأنف جهاده ضد الإيطاليين محققاً عدة انتصارات كمعركة بئر الغبي ٢٣ نيسان ١٣٤٢هـ/ ١٩٢٣م ومعركة قصر المقدم ٨ تشرين ثاني ١٣٤٨هـ/ ١٩٢٩م. ومعركة الفايدية ١١ نيسان ١٣٤٩هـ/ ١٩٣٠م. قال غراسياني، القائد العام الإيطالي، في بيان له عن الوقائع التي نشبت بين جنوده وجنود المختار: «إنها كانت ٢٦٣ معركة في خلال عشرين شهراً». هذا عدا ما خاضه المختار من المعارك خلال عشرين سنة قبلها.

وفي أيلول ١٣٥٠هـ/ ١٩٣١م، وبينما كان المختار في سَرية من رجاله، نحو خمسين فارساً، بناحية سلطنة بالجبل الأخضر، يستكشف مواقع العدو، فوجيء بقوة إيطالية قد أحاطت به، فقاتلها، واستشهد أكثر من معه من المجاهدين، وأصيب هو بجراح، وقتل حصانه، فانقض عليه بعض الجنود فأسروه وهم لا يعرفون من هو. ثم عُرف وأرسل إلى سوسة، ومنها إلى بنغازي حيث سجن أربعة أيام، وسئل عن أعماله فأجاب بالإيجاب غير هيَّاب. وقد جرى بينه وبين الجنرال غراسياني الحوار التالي:

س- لماذا حاربت بشدة الحكومة الفاشيستية؟.
ج - من أجل وطني وديني.
س- ما الذي كان في اعتقادك الوصول إليه؟
ج - لا شيء إلا طردكم من بلادي لأنكم مغتصبون. أما الحرب فهو فرض علينا وما النصر إلا من عند الله». وبسرعة انعقدت المحكمة الصورية لمحاكمته بتاريخ ١٥ أيلول ١٣٥٠هـ/ ١٩٣١م. وعلى الرغم مما دار في تلك المحاكمة الهزيلة من مناقشة فإن حكم الإعدام شنقاً قد صدر في حق الشيخ عمر المختار. وعندما سمع الحكم عليه بالإعدام كان رده: «الحكم حكم الله لا حكمكم المزيف إنا لله وإنا إليه راجعون». وعند تنفيذ الحكم به أمام جموع هائلة من أبناء الشعب الليبي الذين جيء بهم من المعتقلات

لمشاهدة ذلك ردد المجاهد البطل ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ [الفجر ٢٨] وكان استشهاده في قرية سلوق، ٤ جمادى الأولى ١٣٥٠هـ/ ١٦ أيلول ١٩٣١م وكان عمره ٧٣ سنة.

وباستشهاد المختار استطاع الإيطاليون الوصول إلى أقصى جنوب ليبيا، لأن زعماء الجهاد الليبي استشهد منهم من استشهد، ومن بقي منهم على قيد الحياة هاجر إلى البلدان المجاورة. «وهكذا طويت صفحة من أنصع صفحات تاريخ مقاومة الإستعمار الحديث على الأرض العربية. إن نضال البطل الزاهد عمر المختار يجب أن يظل دائماً نبراساً وقدوة حسنة للأجيال العربية في مقاومة الإستعمار والتسلط الأجنبي. وما أحوجنا اليوم إلى شخصية وفدائية روح عمر المختار»[1].

٤٤ - فاطمة تسومر الزواوية الجزائرية

ولدت عام ١٢٤٦هـ/ ١٨٣١م بقرية آيت سوارغ حيث كان والدها شيخ زاوية سيدي أحمد أفريان. نشأت لالا فاطمة في أسرة تنتمي إلى إحدى الطرق الصوفية الجزائرية (الرحمانية)، وفي السادسة عشرة من عمرها تخلت عن لباس الحرير، وآثرت التنسك والإنقطاع للتبتل والعبادة. ثم أخذت عن أخيها الأكبر سي طاهر تعاطي العرافة والنجامة والرقى. ومنذ عام ١٢٦٠هـ/ ١٨٤٤م توغل الإستعمار الفرنسي في أرض زواوة، وحصلت معارك عديدة بين الجيش الفرنسي وبين المجاهدين الجزائريين، فانضمت لالا فاطمة إلى فرقة المجاهد محمد ابن عبد الله، وأخذت تحرّض مشايخ الزوايا والمقدمين مع أتباعهم على قتال الفرنسيين وعملائهم لا سيما سي الجودي الذي طعنته فاطمة وسط المعركة وأردته قتيلاً. وقد تزعمت فاطمة فرقة من الفتيات والنساء الجزائريات اللواتي

(١) را: القشاط، جهاد الليبيين، ص ٢٢٤ ـ ٢٢٥؛ الزركلي، الأعلام ٥/ ٦٥ ـ ٦٦؛ حبيب الحسناوي، من مقال له عن عمر المختار (ليبيا ١٩٨٣) ص ١٨ ـ ٥١؛ إدريس الحرير، من مقال له عن عمر المختار بمناسبة مرور خمسين عاماً على استشهاده (ليبيا ١٩٨٣) ص ٦٩ - ٧٨؛ المبروك الساعدي، من مقال (عن عمر المختار (ليبيا ١٩٨٣) ص ١٠٩.

كن يقاتلن العدو جنباً إلى جنب مع الرجال، ويساعدن بنقل الزاد والعتاد الحربي ويواسين الجرحى والمرضى ويضمدن الجراح. وقد تمكنت من إلحاق عدة هزائم بالجيش الفرنسي الذي أعاد الكرة عام ١٢٧٣هـ/ ١٨٥٧م بخمس وأربعين ألفاً من الجنود المدججين بأحدث الأسلحة الفتاكة، ضد جيش لالا فاطمة المكون من سبعة آلاف من المقاتلين والمقاتلات. وبعد معارك طاحنة أُسرت لالا فاطمة مع مئتين من النساء، واقتيدت إلى المعتقل حيث ظلت نحو سبع سنوات منقطعة للعبادة والتبتل حتى وافاها الأجل داخل المعتقل عام ١٢٨٠هـ/ ١٨٦٣م[1].

٤٥ ـ محمد أبو اليسر عابدين

ولد بدمشق في سوق ساروجا عام ١٣٠٧هـ/ ١٨٨٩م في أسرة اشتهرت بالعلم والفتيا. أخذ عن والده محمد مفتي الشام النحو والصرف والحساب والمنطق والفقه والأصول والحديث وتلاوة القرآن برواية حفص. ثم قرأ على كبار علماء عصره: سليم سمارة، أمين سويد، بدر الدين الحسني وأخذ الطريقة النقشبندية والطريقة الخلوتية عن جده الشيخ أحمد. ولما اندلعت الثورة السورية ضد الفرنسيين شارك أبو اليسر في الجهاد بماله ونفسه ورأيه ورجاله. وكان يحمل السلاح والدواء للمجاهدين ليلاً، ويتبرع لهم بدمه عند اللزوم، ويعرّض نفسه للمخاطر ابتغاء رضوان الله.

أتقن اللغات التالية: الفرنسية والتركية والفارسية بالإضافة إلى العربية، وتخرج طبيباً من كلية الطب في الجامعة السورية عام ١٣٤٥هـ/ ١٩٢٦م ومارس مهنة الطب وبعد وفاة مفتي الشام الشيخ محمد شكري الأسطواني ١٢٧٣هـ/ ١٩٥٣م انتخب أبو اليسر مفتياً عاماً للجمهورية العربية السورية.

توفي بدمشق عام ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م ودفن بمقبرة الباب الصغير بالقرب من أبيه. ترك عدة آثار في التصوف والفقه والفتيا. كان من المجاهدين بالكلمة والسلاح، فقد أثرت عنه مواقف عظيمة: منها نصيحته للملك فيصل بن الحسين

(١) را: عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام ٤/ ٣١٥ ـ ٣١٩

لإقامة دستور البلاد على أساس الشريعة الإسلامية، قائلاً له: «هذه أمانة أخرجتها من عنقي ووضعتها في عنقك، وأعلم أن ملكك زائل إن لم تحكم بالشرع، وسيضحك عليك الغرب كما ضحك على أبيك» وخرج من عنده ولم يسلم عليه.

وحين طلب منه ـ في بعض الظروف التي مرت على سورية ـ أن يفتي في قضية يرفضها الشرع، فلما رفضها فصل عن العمل؛ لكن عندما تغيرت الظروف عاد إلى مركز الإفتاء مكرماً معززاً.

ومن مواقفه المشرفة مشاركته للمتدربين على السلاح إبان نكبة فلسطين عام ١٣٦٨هـ/ ١٩٤٨م حينما خرج إلى معسكر التدريب ومعه العلماء يتدربون على الأسلحة والرماية.

وفي عام ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٦م اندفعت سورية نحو التسلح لمواجهة أعداء الأمة فكان أبو اليسر رئيس لجنة التسلح فتبرع من ماله الخاص بمبلغ كبير(١).

٤٦ ـ محمد بن أبي بكر العرودك

عندما فر المسلمون عام ٦٨٠هـ/ ١٢٨١م من زحف التتار إلتجأ فريق منهم إلى جبل من أرض سلمية، على مرحلة من مدينة حمص السورية. وهناك وقف الشيخ محمد يحرِّض جموع الفارين على الثبات لمقاتلة التتار، ويبين لهم أن النصر سيكون حليف المسلمين. وبالفعل فعندما جرت المعركة يوم الخميس سادس عشر رجب عام ٦٨٠هـ/ ١٢٨١م بأرض حمص إنكسر التتار وتشتتت جموعهم. استشهد الشيخ محمد عام ٧٠٠هـ/ ١٣٠٠م وهو يقاتل التتار، ودفن فوق القاطر بقرب منبج(٢).

(١) را: أباظة والحافظ، تاريخ علماء دمشق ٢/٩٦٨ ـ ٩٧٣.
(٢) را: النبهاني، جامع كرامات ١/٢٢٧.

٤٧ ـ محمد أحمد (مهدي السودان)

ولد عام ١٢٦٠هـ/ ١٨٤٤م بجزيرة لبب جنوب دنقلة. من أسرة اشتهر أنها حسينية النسب كان أبوه فقيهاً فتعلم منه القراءة والكتابة، وحفظ القرآن وهو في الثانية عشرة من عمره. عمل في نجارة السفن مدة وجيزة، ثم ذهب إلى الخرطوم فقرأ الفقه والتفسير وسلك طريق الصوفية. وانقطع في جزيرة عبه (آبا) في النيل الأبيض مدة خمس عشرة سنة للعبادة والدرس والتدريس، وقد بنى فيها مسجداً وخلوة، وجعلها مقراً عاماً له. وقد اشتهر بالصلاح فكثر أتباعه ومريدوه الذين عرفوا بالدراويش. كانت تعاليمه مستقاة من الوهابية والسنوسية، فكان يدعو إلى العودة إلى الإسلام في فطرته الأولى، ويحارب البدع والمؤثرات الأجنبية، ويحرم عبادة الأولياء، والحج إلى قبورهم، ويحارب السحر، ويحرم الموسيقى والتبغ... وقد قام بعمل عظيم على صعيد المساواة والتوحيد. وغالباً ما كان يوصل أدنى الناس مرتبة إلى أعلى المراكز سريعاً. وكان يدعو إلى تطهير البلاد من مفاسد الحكام. وقد أعطى أهمية للجهاد في سبيل تحرير السودان من الإستعمار الإنكليزي. وكان الإنكليز قد سيطروا على السودان، وكانت تعززهم القوات المصرية التي كانوا يتولون قيادتها.

وأخذ يبث دعوته في الأمة فتقاطر المريدون على الجزيرة. ولما استفحل أمره أرسلت الحكومة عام ١٢٩٩هـ/ ١٨٨١م حملة إلى الجزيرة للقبض عليه؛ لكن هذه الحملة انهزمت وفشلت الحكومة في الحد من نفوذه. وقد عرفت هذه المعركة بمعركة آبا. ولما بايعه عبد الله بن محمد التعايشي قويت شوكته. وكان التعايشي أول من أطلق عليه لقب المهدي. فكتب المهدي إلى فقهاء السودان يدعوهم لنصرته، وانبث الدراويش بين القبائل يحضون على الجهاد. وتحصن المهدي في جبل «قدير» في كردفان. وحاصر أنصاره منطقة النيل الأبيض عام ١٣٠٠هـ/ ١٨٨٢م واستولوا عليها عام ١٣٠١هـ/ ١٨٨٣م، كما استطاعوا تشتيت الجيش المصري الذي كان تحت إمرة ضباط انكليز على رأسهم الضابط هكس. وقد استولى المهدي على كميات كبيرة من السلاح والذخيرة. كما سحق السودانيون حملة مصرية أخرى بقيادة ضابط إنكليزي يدعى فلنتين بيكر. ثم وصل إلى

السودان ضابط بريطاني ثالث يدعى جوردون على رأس جيش مصري ثالث، فتحصن في الخرطوم وأخذ يساوم المهدي عارضاً عليه أن يكون ملكاً على كردفان، وكأن السودان ملك الإنكليز يوزعون الوظائف والأراضي على هواهم. وهزأ المهدي بالعرض، وطلب من جوردون أن يعتنق الإسلام، ويلبس الجبة؛ لكن الضابط الإنكليزي رد بعنجهية وتعالٍ، فهاجمه الدراويش وحاصروا الخرطوم، وطلبوا منه التسليم فرفض؛ عند ذلك اقتحموا الخرطوم فجر ٢٦ كانون أول ١٣٠٣هـ/ ١٨٨٥م، واستولوا عليها، وقتل جوردون في الهجوم. وبذلك سيطر المهدي على السودان كله، فجعل من أم درمان عاصمة لملكه، ونظّم إدارة البلاد، وعين أمراء وولاة على المناطق، متخذاً من الشريعة الإسلامية نبراسه في الحكم، وصك النقود باسمه. وأخذ يراسل خديوي مصر والسلطان عبد الحميد وملكة انكلترا يشعرهم بدولته، ومقر سلطنته. ومما ساعد على انتشار حركة المهدي إنتشاراً واسعاً السخط الذي تولد عن سوء الحكم والإدارة: «واشتعل السخط العام عندما ظهر زعيم جمع طوائف الساخطين على اختلافهم تحت راية الدين، وقد برهن هذا الزعيم على قداسة رسالته بهذه الإنتصارات التي أحرزها أتباعه القليلو العدة على القوات الحكومية».

وفي ٢٢ حزيران ١٣٠٣هـ/ ١٨٨٥م توفي المهدي بالجدري في أم درمان، بعد أن أوصى بالخلافة من بعده لعبد الله التعايشي، القائد العام للدراويش.

وفي عام ١٣١٦هـ/ ١٨٩٨م تمكن قائد الجيش البريطاني كيتشنر من القضاء على خليفة المهدي (التعايشي) الذي سقط شهيداً. واستوليَ على السودان وأُخضعَ للحكم الثنائي (المصري ـ الإنكليزي)، وقُضيَ على شيوخ الطريقة المهدية ونظام حكمها. لكن الحركة المهدية لم تنته، فلا يزال لها أنصار حتى اليوم[1].

(١) را: القشاط، جهاد الليبين، ص ٣٢ ـ ٣٤؛ مصطفى الرافعي، الدعوة والدعاة، ص ١١١؛ أحمد عطية الله، القاموس الإسلامي ١/ ٥؛ البرت الريحاني، الموسوعة العربية، ص ٧٤٣؛ الزركلي، الأعلام ٦/ ٢٠؛ فنسان، الإسلام في إفريقية، ص ٢٢٦؛ دائرة المعارف الإسلامية ١٣/ ٣٤٢ ـ ٣٤٤؛ كحالة، معجم ١/ ٧٥؛ حسن صادق، الفرق الإسلامية (القاهرة ١٩٩١) ص ٢٦٣ ـ ٢٧٣.

٤٨ ـ محمد بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي

أبو عمر، وهو أخ للشيخ موفق الدين بن قدامة. ولد عام ٥٢٨هـ/ ١١٣٤م بقرية جماعيل بفلسطين. وبعد استيلاء الصليبيين على الديار المقدسة انتقل محمد مع أهله إلى دمشق، ونزلوا بمسجد أبي صالح أولاً ثم انتقلوا إلى سفح قاسيون. حفظ محمد القرآن الكريم ومختصر الخرقي في الفقه. وحبب إليه نسخ الكتب الدينية التي كان يوزعها على الناس دون أجر، ومال إلى العبادة والزهادة والتهجد: يصوم كل يوم، ويقرأ سبعة أجزاء من القرآن بين الظهر والعصر، ويصلي الضحى ثماني ركعات يقرأ فيهن ألف مرة سورة الإخلاص. وقد بني مسجداً جامعاً بدمشق تولى هو بنفسه الخطابة فيه. وكان يتصدق على الأرامل والمساكين، ولا يتخلف عن محاربة الصليبيين، فكان يخرج مع السلطان صلاح الدين إلى بلاد الفرنج؛ وقد حضر فتح بيت المقدس والسواحل الفلسطينية. وظل الشيخ محمد مواظباً على عبادته وأوراده ووعظه وجهاده حتى وفاته في ٢٩ ربيع الأول ٦٠٧هـ/ ١٢١٠م ودفن على طريق مغارة الجوع في الزقاق المقابل لدير الحوراني بدمشق. وقد حضر جنازته أكثر من عشرين ألفاً.

خرّج له الحافظ عبد الغني عبد الواحد المقدسي أربعين حديثاً من رواياته. «كان لا يسمع دعاء إلا حفظه وعمل به، ولا يسمع ذكر صلاة إلا صلاها، ولا يسمع حديثاً إلا عمل به، وكان لا يكاد يسمع بجنازة إلا حضرها، ولا بمريض إلا عاده، ولا جهاد إلا خرج فيه، ويلبس الخشن، وينام على الحصير، وكان ثوبه إلى نصف ساقه...».

من شعره الذي يحث فيه على تلاوة القرآن الكريم:

«أوصيكم بالقولِ في القرآنِ ... بقولِ أهلِ الحقِّ والإتقانِ
آياتهُ مشرقةُ المعاني ... متلوةٌ لله باللسانِ
محفوظةٌ في الصدورِ والجَنانِ ... مكتوبة في الصحفِ بالبَنانِ»[1].

(١) را: ابن كثير، البداية والنهاية ١٣/ ٦٤ ـ ٦٦؛ القنوجي، التاج المكلل، ص ٢٢٠ ـ ٢٢٢؛ الزركلي، الأعلام ٥/ ٣١٩؛ عبد القادر بدران، منادمة الأطلال (بيروت ١٩٨٥) ص ٢٤٧ ـ ٢٤٨؛ ابن رجب الحنبلي، كتاب الذيل على طبقات الحنابلة ٢/ ٥٢ ـ ٥٩.

٤٩ ـ محمد بن أحمد بن محمد الهاشمي الجزائري

ولد في بلدة سبدة، القريبة من تلمسان بالجزائر، عام ١٢٩٨هـ/ ١٨٨٠م. يرجع نسبه إلى الحسن بن علي بن أبي طالب (ض). كان أبوه قاضياً في بلدته. نشأ محمد على طلب العلم فلازم علماء الجزائر. وعندما قام الفرنسيون بالتضييق على علماء الجزائر، ومنع حلقاتهم، هاجر محمد مع شيخه محمد بن يلّس إلى بلاد الشام عام ١٣٢٩هـ/ ١٩١١م فراراً من الإستعمار الفرنسي. وفي دمشق أخذ محمد مختلف العلوم عن مشايخها: عبد القادر الدكالي، بدر الدين الحسني، أمين سويد، توفيق الأيوبي، محمد بن يوسف المعروف بالكافي... وسلك الطريقة الشاذلية على الشيخين محمد بن يلّس وأحمد بن مصطفى العلوي وذلك عام ١٣٥٠هـ/ ١٩٣١م. ثم أنشأ زاوية بالقرب من منزله في حي المهاجرين بدمشق. كان الشيخ محمد يقيم حلقات العلم والذكر في زاويته وفي مختلف مساجد دمشق، فتاب على يديه الكثيرون، وتخرج بصحبته الألوف الذين نشروا العلم والتصوف في الربوع السورية. لقد شنّ الشيخ حرباً لا هوادة فيها على البدع والزيغ والضلالات والعقائد الفاسدة. وكان يهتم لأحوال المسلمين، ويتألم لما يصيبهم، ويحذر من فرقتهم؛ يكره الإستعمار، ولهذا انضم إلى صفوف المقاومة الشعبية، يتدرب على أنواع الأسلحة، مع ضعف جسمه ونحوله وكبر سنه.

توفي بدمشق عام ١٣٨١هـ/ ١٩٦١م ودفن بمقبرة الدحداح، تاركاً العديد من المؤلفات في العقيدة والتصوف، وفي وحدة المسلمين ومناهضة المستعمرين[١].

٥٠ ـ محمد أورنك سلطان الهند

يصفه المرادي بقوله: «سلطان الهند في عصرنا، وأمير المؤمنين وإمامهم، وركن المسلمين ونظامهم، المجاهد في سبيل الله، العالم العلامة الصوفي العارف

(١) را: أباظة والحافظ، تاريخ علماء دمشق ١/ ٧٤٧ ـ ٧٥٠.

بالله، الملك القائم بنصرة الدين، الذي أباد الكفار في أرضه وقهرهم، وأضعف شركهم، وأيد الإسلام وأعلى في الهند مناره، وجعل كلمة الله هي العليا».

نشر الإسلام في ربوع الهند، كما فرض الجزية على المخالفين، وكان ديدنه الجهاد وغزو الكفار. وكان يوزع أوقاته بين العبادة والتدريس، ومصالح الجنود، والإستماع لشكاوي الناس، ومطالعة الكتب، وتلقف أخبار البلاد. وهو من سلالة تيمورلنك. ولد عام ١٠٢٨هـ/ ١٦١٩م. حفظ القرآن في صغره، واشتغل بالخط، وكتب مصحفاً بخطه وأرسله ليوضع في الحرم النبوي. وأقبل على تحصيل العلوم والمعارف حتى صار مرجعاً للعلماء. ثم سلك طريق التصوف على العديد من العارفين الذين بشروه بمستقبل عظيم. وقد ولاه والده بعض الأعمال المهمة فبرع فيها. وفي عام ١٠٦٨هـ/ ١٦٥٧م حصل لوالده فالج عطّله عن الحركة، فاستلم أورنك السلطة، وحارب ملوك الهند المختلفين وأسرهم وسيطر على بلادهم، وجُبيت إليه الأموال وأطاعته الرعية. وكان كلما فتح بلداً شرع في افتتاح أخرى، يساعده في ذلك خوف حقيقي من الله وحده، وجد في العبادة، وطلب لرضا المولى عزَّ وجلَّ، وجيش لجب.

قرّب إليه العلماء، وأقام بهم دولة العلم بالهند ومن مآثره أنه أمر علماء الحنفية في بلاده بوضع فتاوى تجمع جل مذهبهم، مما يحتاج إليه من الأحكام الشرعية، فجمعت في مجلدات وسماها الفتاوى العالم كيرية. واشتهرت هذه الفتاوى في الأقطار الحجازية والمصرية والشامية وظل السلطان في جهاده حتى وافاه الأجل عام ١١١٨هـ/ ١٧٠٧م بالدكن، ودفن في تربة آبائه، بعد أن أقام في الملك خمسين سنة[١].

٥١ ـ محمد بن حمزة الشهير بآق شمس الدين

ولد بدمشق، ثم أتى مع والده إلى بلاد الروم (تركية) واشتغل بالعلوم،

(١) را: محمد المرادي، سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر (بغداد مكتبة المثنى) ٤/ ١١٣ ـ ١١٤؛ الزركلي الأعلام ٦/ ٤٦.

فجمع بين الطبين الروحاني والجسماني. أقام في بلدة كونيك، واشتهر أمره. ولما أراد السلطان محمد خان فتح القسطنطنية دعا الشيخ للجهاد، وأرسل إليه أحمد باشا ابن والي الدين؛ فأتى الشيخ شمس الدين مع مريديه إلى قلعة القسطنطينية، وأخذ يحمس الجنود ويشجعهم، ويبين لهم أن النصر سيكون حليفهم، وأنهم سيدخلون القلعة من موضع عينّه لهم. وبعد جهاد طويل وكفاح مرير دخل الجنود القلعة وحققوا النصر الحاسم. وتجدر الإشارة إلى أن هذا الشيخ هو الذي عيّن موضع دفن الصحابي الكبير أبي أيوب الأنصاري الذي شارك في حصار القسطنطينية أيام الأمويين، واستشهد ودفن بموضع قريب من السور. فلما عيّن الشيخ شمس الدين موضع القبر، أمر السلطان محمد الفاتح ببناء قبة على ذلك الموضع، كما أمر ببناء جامع عظيم، وطلب من الشيخ أن يجلس فيه مع مريديه، لكن الشيخ استأذن في الرجوع إلى وطنه كونيك حيث أقام حتى وفاته[1].

٥٢ ـ محمد بن سليمان الجزولي[2] السملالي الحسني

أحد مريدي الطريقة الشاذلية في المغرب العربي. من تآليفه المشهورة «دلائل الخيرات» وهو مجموعة أدعية وصلوات على الرسول ﷺ. وهو كتاب معتمد لدى جماهير الصوفية والمؤمنين كافة. وفي الجهاد الحربي، قام الشيخ محمد بتحريض المغاربة حتى يتصدوا للبرتغاليين الذين احتلوا الشواطيء المغربية. ودعا جماهير الأمة إلى الجهاد المقدس، فلبى نداءه ألوف المجاهدين وفي طليعتهم تلاميذه ومريدوه الذين فاق عددهم الأثني عشر ألفاً. توفي عام ٨٧٠هـ/ ١٤٦٥م ودفن في بلاد السوس المراكشية. وبعد سبع وسبعين سنة نُقلت رفاته إلى مراكش حيث أصبح قبره مزاراً من مزارات المدينة، ومكاناً لقراءة دلائل الخيرات.

من آثاره دلائل الخيرات وشوارق الأنوار في ذكر الصلاة على النبي المختار[3].

---
(١) را: النبهاني، جامع كرامات ١/ ٢٧٤ ـ ٢٧٥.
(٢) الجزولي نسبة إلى جزولة أو كزولة من بطون البربر.
(٣) را: هاشم العلوي القاسمي، مقدمة تحقيق كتاب التقاط الدرر (بيروت ١٩٨١) ص ٩٩ ـ =

٥٣ ـ محمد السمين

كان يتنقل بين مناطق العراق وسورية. ولما جد في سلوك طريق التصوف ووصل إلى مقام الشوق؛ إذ به يرى جموعاً من المسلمين تخرج للغزو، فخرج معهم. ولما اشتبك المسلمون مع الروم، وحمي وطيس المعركة، كادت الدائرة تدور على المسلمين، واشتدت شوكة الروم، وأصاب المسلمين جزع شديد لكثرة عدوهم. ولنترك هذا البطل يتحدث عن مشاعره وأحاسيسه: «فرأيت نفسي مروعاً، فكبر ذلك علي فوبخت نفسي ألومها وأقول لها: أين ما كنت تدعينه من الشوق؟ وأعاتبها وأقول لها لما ظفرت بما تؤملين تغيرت واضطربت؟ فبينا أنا في عتابي وتوبيخي لها وقع لي أن انزل إلى هذا النهر واغتسل. وبحضرتنا نهر من أنهار الروم. فخلعت ثيابي واتزرت ودخلت النهر فاغتسلت، فأُعطيت قوة وذهب عني الروع والإضطراب بتلك القوة، واشتدت بي العزيمة. فخرجت ولبست ثيابي وأخذت سلاحي وأتيت الصف، فحملت حملة لا أحسّ من نفسي شيئاً، فخرقت صفوف المسلمين وصفوف الروم، وصرت من وراء صفوف الروم، فكبّرت تكبيرة، فسمع العدو تكبيري وقدروا أن كميناً للمسلمين قد خرج عليهم من ورائهم فولوا منهزمين، وحمل عليهم المسلمون فقُتل منهم نحو أربعة آلاف رجل، وجعل الله ذلك التكبير سبباً للفتح والنصر»[1].

٥٤ ـ محمد صالح بن أحمد الخطيب الحسني

كان قادري الطريقة. ولد في ثغر مدينة عكا بفلسطين عام ١٣١٣هـ/ ١٨٩٢م حيث كانت أمه في زيارة ابنها البكر الشيخ عبد الرحمن الخطيب؛ إمام الجيش العثماني بعكا. عادت به إلى دمشق حيث ظل فيها حتى وفاة والده الشيخ أحمد عام ١٣٢١هـ/ ١٩٠٣م فانتقل إلى سكنى أخيه عبد الرحمن؛ وأخذ يتنقل معه من مدينة لأخرى. وكان الشيخ محمد يتابع تحصيله العلمي في كل مكان

= ١٠٠؛ النبهاني، جامع كرامات ١/ ٢٧٦؛ الزركلي، الأعلام ٦/ ١٥١؛ إسماعيل البغدادي، هدية العارفين (بيروت ١٩٨٢) ٢/ ٢٠٤.
(١) را: الأصفهاني، حلية الأولياء ١٠/ ٣٣٧.

يتوقف فيه. ثم دُعي للخدمة العسكرية أثناء الحرب العالمية الأولى، فأتم دورتي تدريب لضباط الإحتياط المشاة والمدفعية في ضواحي استنبول. ثم التحق بالجيش العثماني بفلسطين حتى انتهاء الحرب؛ فرجع إلى دمشق وانصرف إلى التعليم.

ولما حصلت موقعة ميلسون[1] عام ١٣٣٩هـ/ ١٩٢٠م شارك مع أخيه الشيخ كمال الدين في التصدي للقوات الفرنسية الزاحفة نحو دمشق؛ فاستشهد أخوه بينما وقع هو في الأسر. وبعدما أطلق سراحه عاد إلى التدريس والخطابة والتأليف.

توفي بدمشق عام ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م ودفن بمقبرة الباب الصغير. له عدة مؤلفات في التصوف والعقيدة والحديث والسيرة النبوية[2].

٥٥ ـ محمد بن طاهر التَّدميري القيسي

ويعرف بالشهيد. كان عظيم القدر بالأندلس، بعيد الأثر في الخير والصلاح والعلم والنسك والإنقطاع إلى الله تعالى. اشتهر بالفقه والزهد والعبادة والتبتل.

---

(١) بعد انسحاب العثمانيين من الشام دخل الإنكليز مع رجال الشريف حسين دمشق. ولم تطل مدة الحكومة العربية في الشام حتى نشب الخلاف بين الملك فيصل والفرنسيين الذين منحهم مؤتمر سان ريمو نيسان ١٣٣٩هـ/ ١٩٢٠م حق الإنتداب على لبنان وسورية وحصة من نفط الموصل، ضارباً عرض الحائط باستقلال هذه المنطقة، وجاحداً لما فعله العرب من مساعدة للإنكليز الحلفاء. وفي ١٤ تموز ١٣٣٩هـ/ ١٩٢٠م وجه الجنرال غورو إنذاراً إلى الملك فيصل يطلب منه قبول الإنتداب الفرنسي فوراً، وإلغاء التجنيد الإجباري، وتسريح الجيش العربي. ولم ينتظر الجنرال الرد فأمر قواته بالزحف على دمشق. وكان الجيش العربي في سلسلة الجبال التي عند بلدة مجدل عنجر في لبنان، حين وصلته الأوامر بالتسريح؛ فانسحب أفراده. ولما وصلوا إلى ميسلون وجدوا الفرنسيين خلفهم، فأخبروا يوسف العظمة وزير الحربية فقال: «اثبتوا مكانكم لحين إرسال الأمداد». وتمركز الفرنسيون في المرتفعات. وكان من قواد الجيش العربي: صدقي الكيلاني قائد المدفعية، حسن الهندي قائد اللواء.
وفي اليوم الثالث بدأ الهجوم وأوقف المجاهدون العدو إلى ما بعد الظهر حين نفدت الذخيرة. وانجلت المعركة عن انتصار الفرنسيين ودخولهم دمشق يوم ٢٥ تموز ١٩٢٠م (را: بالي، نهر الذهب ٣/ ٧٤٥ ـ ٧٤٦؛ دائرة المعارف الإسلامية ١٣/ ١٠٩؛ أباظة، تاريخ علماء دمشق ٢/ ٨٨٣ ـ ٨٨٤) كرد علي، خطط الشام ٣/ ١٧٦ ـ ١٧٧).

(٢) را: أباظة، تاريخ علماء دمشق ٢/ ٩٦٣ ـ ٩٦٧.

درّس وناظر في قرطبة، ثم ارتحل إلى المشرق وحج وجاور ثمانية أعوام يتعيش فيها من عمل يده بالنسخ، ثم سار إلى العراق فلقي أبا بكر الأبهري وأخذ عنه. كان يكثر من لقاء الصالحين وأهل العلم. ولبس الصوف، شعار الزاهدين والنسّاك، وأعرض عن الشهوات. ثم رجع إلى بلده تُدمير عام ٣٧٧هـ/ ٩٨٧م ثم سكن خارج مدينة مرسيه في كوخ متواضع، وكان يقتات من عمل يده بالزراعة. ثم صار يغزو مع المنصور محمد بن أبي عامر، ثم تحول من قريته، بعد عامين، إلى الثغر وواصل الرباط، ونزل مدينة طَلَبيرة، وكان يدخل منها في السرايا إلى بلد العدو فيغزو. وكان له بأس شديد وشجاعة وثقافة. وظل في نضاله وجهاده حتى استشهد مقبلاً غير مدبر عام ٣٧٩هـ/ ٩٨٩م عن اثنين وأربعين عاماً[1].

٥٦ ـ محمد بن طه بن محمد الأشمر

يرجع أصل أسرته إلى مكة المكرمة. رحل أحد أجداده إلى قرية سيجر القريبة من حماه بسورية. ثم قدم جدٌّ له إلى دمشق وسكن بحي الميدان وذلك منذ أكثر من قرن ونصف.

ولد محمد بدمشق بحي الميدان الفوقاني عام ١٣٠٩هـ/ ١٨٩٢م ونشأ في بيئة دينية، وأخذ عن علماء دمشق المشهورين: بدر الدين الحسني أخذ عنه الحديث، عبد القادر الشموط أخذ عنه الفقه. وسلك الطريقة النقشبندية على الشيخ أمين الزملكاني الكردي. ولما بدأ الفرنسيون هجومهم على سورية لإخضاعها كان الشيخ محمد في طليعة المجاهدين في ميسلون. وبعد تشتت الجنود التجأ إلى حوران. ولما هدأت الأحوال عاد إلى دمشق ليكون صلة الوصل بين المجاهدين في دمشق والدروز. ولما علم به الفرنسيون حاولوا القبض عليه؛ لكنه فر إلى الأردن وأقام في الرمثا. ثم بدأت الثورة في غوطة دمشق فشارك الشيخ محمد في هذه المعارك وأبلى البلاء الحسن. وفي ٧ آذار ١٣٤٥هـ/ ١٩٢٦م هاجم

---

(١) را: أحمد المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس (بيروت ١٩٦٨) ٢/ ٢٣٤ ـ ٢٣٥.

الفرنسيون الثوار السوريين بحي الميدان، مستخدمين العديد من فرقهم وكتائبهم ومدفعيتهم ودباباتهم وطائراتهم. وكان الشيخ محمد متحصناً بهذا الحي مع حوالي مئة مجاهد، فدارت بين الفريقين معركة عنيفة في الشوارع والحارات استمرت أكثر من خمس ساعات، فاستشهد الكثير من الأبرياء، وهُدمت وأحرقت بيوت ودكاكين كثيرة قُدرت بأكثر من ربع بيوت ودكاكين الحي المذكور.

وبعد انتهاء الثورة السورية عاد الشيخ محمد إلى الأردن، وألّف هناك مع إخوانه فرقة قوامها ستمائة مقاتل، اتخذوا من درعا نقطة عسكرية.

وعندما صدر العفو العام عام ١٣٥٠هـ/ ١٩٣١م عاد الشيخ إلى دمشق وظل فيها حتى اندلاع الثورة في فلسطين عام ١٣٥٥هـ/ ١٩٣٦م فالتحق بالثوار، وظل مثابراً على جهاده ونضاله، لنصرة إخوانه المظلومين، لمدة طويلة. ثم عاد إلى الأردن فدمشق حيث ظل فيها حتى وفاته عام ١٣٨٠هـ/ ١٩٦٠م بعد حياة مليئة بالكفاح والتضحية في سبيل تحرير بلاده من نير الغزاة والمستعمرين[١].

٥٧ ـ محمد عابد السنوسي

هو أخ لأحمد الشريف السنوسي. تولى الدعوة السنوسية في منطقة فزّان، واستعان بمجموعات من عرب الصحراء، واتخذ من واو مقراً له. جاهد المستعمرين الفرنسيين بإرسال عدة حملات ضدهم، في جنوب الجزائر وشمال النيجر وتشاد حتى مالي وذلك عام ١٣٣٥هـ/ ١٩١٦م. وكان يسمي نفسه حاكماً على فزان، ويطمح إلى تأسيس حكومة إسلامية سنوسية في منطقة المسلمين في الصحراء الكبرى[٢].

---

(١) را: أباظة والحافظ، تاريخ علماء دمشق ١/ ٧٤٠ ـ ٧٤٢.
(٢) را: القشاط، جهاد الليبيين، ص ٢٤٦ ـ ٢٤٩.

٥٨ ـ محمد بن عبد القادر بن محمد حجازي الكيلاني

ينتهي نسبه إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني الحسني. استوطنت أسرته دمشق منذ أكثر من ثلاثة قرون. وقد لُقّب جده العاشر أمين الكيلاني بالحجازي لقدومه من الحجاز.

ولد محمد عام ١٢٨٧هـ/ ١٨٧٠م. أخذ العلم والذكر عن كبار علماء عصره. وكانت له زاوية بدمشق، تحولت فيما بعد إلى مركز لتجمعات المجاهدين، خلال الثورة السورية ضد الفرنسيين الغاصبين.

إستهل جهاده مع شقيقه رسلان في معركة ميسلون. ولما دخل الفرنسيون دمشق، فرّ إلى الجبال ثم عاد سراً إلى دمشق. ولما نشبت الثورة السورية الكبرى اشترك الشيخ محمد مع أسرته في معارك عديدة منها: الغوطة، النشابية، جوبر، زور المليحة، الضمير، باب الجابية، دوما، شبعا، جسر تورا، صحنايا، ببيلا، يبرود، ومعارك وادي التيم وغيرها. تولى مع البطلين حسن الخراط وديب الشيخ قيادة مجموعة من الثوار لمهاجمة فرقة فرنسية في قرية المليحة، فوقع معظم الفرنسيين ما بين قتيل وجريح وأسير. وفي معركة جوبر الثلاثاء ١٣ تشرين الأول ١٣٤٤هـ/ ١٩٢٥م شارك مع إخوته في قتال الفرنسيين، وقد أصيب شقيقه سعيد حجازي وتفتت عظم عضده. وقد تكبد الفرنسيون في هذه المعركة خسائر كبيرة. كما تمكن الثوار من منع تقدم أكثر من ألف وثمانمائة جندي فرنسي إلى جسر الغيضة، عندئذٍ تدخلت الطائرات الفرنسية لكن المجاهدين اسقطوا واحدة منها. وفي بقية المعارك أبلى الشيخ محمد مع إخوانه المجاهدين البلاء الحسن فالحقوا الهزائم العديدة بالكتائب الفرنسية وجنود السنغال؛ لذلك داهم الفرنسيون منزله ومنازل إخوانه كما داهموا مستودعات الخشب التي يملكونها فنهبوها وأحرقوها، كذلك تعرضت نساء الأسرة للتفتيش والإرهاب والمضايقات.

وبعد انتهاء الثورة نزح آل حجازي الكيلاني من الغوطة إلى جبل العرب ثم إلى الرمثا. وظلوا يتنقلون من مكان لأخر حتى صدور العفو العام فعادوا إلى

دمشق. توفي الشيخ محمد بدمشق عام ١٣٦٠هـ/ ١٩٤١م[1].

٥٩ ـ محمد بن عبد الكبير الكتاني

ولد بفاس عام ١٢٩٠هـ/ ١٨٧٣م. أبو الفيض الكتاني، زعيم الطريقة الكتانية. فقيه، متفلسف، متصوف. انتقد علماء فاس بعض أقواله ونسبوه إلى قبح الإعتقاد، وشكوه إلى السلطان عبد العزيز بمراكش، وزادوا فاتهموه بطلب الملك؛ فرحل إلى مراكش وأظهر براءته مما عُزي إليه، وأقام فيها زمناً، ثم أذن له بالرجوع إلى فاس فعاد. ولما أراد أهلها عقد البيعة للسلطان عبد الحفيظ، تولى الكتاني إملاء شروطها، وفيها تقييد السلطان بالشورى، فحقد عليه السلطان، فساءت حاله وضاقت معيشته، فخرج من فاس عام ١٣٢٧هـ/ ١٩٠٨م قاصداً بلاد البربر، ومعه جميع أسرته، فارسل السلطان الخيل في طلبه، وأعيد بالأمان، فلم يلبث أن اعتقل وسُجن مُصَفَّداً بالحديد هو ومن كان معه حتى النساء والصبيان. ثم جلد وسحب إلى بنيقة في مشور أبي الخصيصات، من فاس الجديدة، فمات بها عام ١٣٢٧هـ/ ١٩٠٨م.

كان الكتاني من دعاة الجهاد الذين واكبوا حركات التحرير، فكان يدعو إلى طرد المستعمر من الشواطيء المغربية، بالرغم من أن بعض الكتانية قد انحرفوا عن هذا الهدف وساعدوا المستعمر في إحكام قبضته على البلاد والعباد.

ومحمد الكتاني هو شقيق محمد عبد الحي صاحب فهرس الفهارس. من كتبه: ـ حياة الأنبياء ـ اللمحات القدسية ـ المواقف الإلهية في التصورات المحمدية ـ لسان الحجة البرهانية في الذبِّ عن شعائر الطريقة الكتانية الأحمدية ـ مجموعة قصائد[2].

(١) أباظة والحافظ، تاريخ علماء دمشق ١/ ٥٥٠ ـ ٥٥٣.
(٢) را: الصغير، إشكالية إصلاح الفكر الصوفي، ص ٧٩ وص ٣١٥؛ الزركلي، الأعلام ٦/ ٢١٤ ـ ٢١٥؛ كحالة، معجم ٩/ ١٨٥ ـ ١٨٦.

٦٠ ـ محمد بن عبد الله السني

ولد بمزدة عام ١٢٦٨هـ/ ١٨٥١م من أسرة تنتمي للعباس بن عبد المطلب. جاء جدها الأولى من المدينة المنورة، ونزل بواد قرب بلدة سنار بالسودان، فسمي الوادي باسمه (وادي مدني). وانتقل والده عبد الله إلى مكة المكرمة حيث درس الفقه وعلوم الدين على الشيخ أحمد بن إدريس. وهناك التقى بالشيخ محمد بن علي السنوسي، وعاد برفقته إلى ليبيا، واشترك في تأسيس الزوايا لتعليم القرآن الكريم والعلوم الدينية. أسس الشيخ عبد الله عدة زوايا سنوسية في غرب ليبيا: غدامس، مزدة، الحرابة، مصراته وغيرها. ولما توفي عام ١٢٩٦هـ/ ١٨٧٨م تولى إبنه محمد إدارة الزوايا وتأسيس زوايا أخرى منها غريان والقلعة والعمامرة والرحيبات. ولما تولى الشيخ محمد المهدي السنوسي قيادة الحركة السنوسية، طلب من الشيخ محمد أن ينشر الدين الإسلامي، ويصد التغلغل التبشيري في بلاد السودان (تشاد الحالية والنيجر) فامتثل الشيخ أوامر شيخه وقاد الجهاد ضد فرنسة، فاصطدم بالفرنسيين في كانم. ثم توجه شمالاً لينظم صفوف المجاهدين. وفي ١٤/ ١٢/ ١٣٣٢هـ/ ١٩١٣م هاجمه الفرنسيون في زاوية قرو وتمكنوا من قتل ابنه عبد الله مع عدد من أفراد العائلة، وتمكن الشيخ محمد من التوجه إلى الكفرة حيث بدأ ينظم الجهاد ضد إيطاليا. وكان ولداه: المهدي يقود الجهاد في فزان، وأحمد يقوده في منطقة الجبل الغربي. ثم قدم الشيخ محمد إلى منطقة أوباري لملاقاة عائلته. لكن الإيطاليين اعتقلوه مع أبنائه وحكموا عليهم بالإعدام، لكن عفواً عاماً شملهم، فوضعوا جميعاً تحت الإقامة الجبرية بمزدة بعد أن صودرت ممتلكاتهم وأحرقت مكتبة مزدة. وفي عام ١٣٥١هـ/ ١٩٣٢م توفي الشيخ محمد.

جمع الشيخ محمد بين المشيخة والفقه وعلوم الدين والجهاد والشعر والأدب. ترك قصائد منها قصيدة أنشدها عند وصوله إلى منطقة كانم حوالي ١٣١٤هـ/ ١٨٩٦م لينشر الدين الإسلامي ويدعو إلى الطريقة السنوسية ويجاهد المستعمرين:

«بلاد كانم في السودانِ أدناها   وأجهلُ الناسِ مَنْ قد كان يهواها
يظنُ فيها لفرطِ الجهلِ منفعةً   ونفعُها لوَدَى فخ لبلواها
آفاتها نسجت بُرداً ومئزرةً   من الرَّدى والرزايا طيّ مأواها

أشجارُها الشوكُ لا ظلٌّ ولا ثمرٌ ... وبالأذى جُلِّلَتْ أنحاءُ بيداها
لولا القضا وقضا حالٍ محتمةٍ ... عليَّ ما كنتُ واللهِ أغشاها
روحي الفداءُ لِمَنْ في حُبِّه ركبَتْ ... نفسي الشدائدَ كي تحظَى بأُخراها
مَنْ لي وأنَّى لمثلي أنْ يكونَ له ... حظٌّ هناك وقلبي بالهوَى تَاها
وأوثقَتْني أوزارٌ ثقلَتْ بها ... فأطلِقْ وثاقي يا بنَ المصطفى طه
عليهِ ثم عليكم دائماً أبداً ... أبهى صلاةٍ وأذكَاها وأزكاها»[1]

٦١ ـ محمد العربي المدغري

شيخ الطريقة الشاذلية الدرقاوية بتافيلات، من جنوب المغرب العربي، وهو تلميذ البدوي زويتن المتوفى بفاس عام ١٢٧٥هـ/ ١٨٥٨م الذي هو مريد مباشر العربي الدرقاوي.

قام الشيخ المدغري بالدعوة إلى الجهاد والتحذير من نتائج التغلغل الإقتصادي الأجنبي خوفاً من وقوع المغرب تحت حكم المستعمرين الفرنسيين كما حصل في الشقيقة الجزائر. وكان هذا المجاهد ذائع الصيت في تافيلات والصحراء المغربية، فاستهل حملته الجهادية عام ١٢٨٠هـ/ ١٨٦٣م بتوجيهه رسالة طويلة إلى كافة المسلمين، يذكّرهم فيها بفضائل الجهاد، ويدعو المغاربة إلى الإستعداد للجهاد والتضحية والنضال ومنع الفرنسيين من القيام بالمشاريع العمرانية في السواحل والمدن والقرى والأرياف؛ لأن الغاية من كل هذه المشاريع التمهيد الفعلي للإستعمار الكامل للمغرب، وإدخال أهله المؤمنين تحت «إيالة الكفر» وبالتالي فلا يجوز السكوت عن هذه الأوضاع، لأنها ستؤدي إلى أن يصبح المستعمر يأمر وينهى ويُمتثل أمره. فلا يجب أن يحقق المستعمر أهدافه دون قتال أو جهاد مقدس يقوم به المسلمون دفاعاً عن أراضيهم وعقائدهم وأعراضهم. والإستعداد من قبل المسلمين ضروري لأن القتال لا شك واقع.

ومنذ عام ١٣٠٥هـ/ ١٨٨٨م أخذ المدغري الدرقاوي على عاتقه توحيد

(١) را: القشاط، جهاد الليبيين، ص ٢١٧ ـ ٣٠٣.

صفوف القبائل الصحراوية جنوب المغرب، لرد عدوان الفرنسيين.

وظل هذا البطل في جهاده حتى وفاته عام ١٣٠٩هـ/ ١٨٩٢م[1].

٦٢ ـ محمد بن علي السنوسي

مما لا شك فيه أن اسم السنوسي هو من ألمع أعلام الإسلام في التاريخ الحديث للجزائر وللمغرب العربي؛ لأن هذا الاسم مرتبط بحركة البعث والإصلاح في حقول الدين والثقافة والإجتماع والسياسة والحرب.

ولد محمد بن علي السنوسي بنواحي مستغانم بالجزائر عام ١٢٠٢هـ/ ١٧٨٧م، ويعود نسبه إلى الملوك الأدارسة الحسنيين، مؤسسي الدولة الإدريسية بالمغرب. أما اشتهاره بالسنوسي فقد جاء من اللقب الذي كان يحمله جده تبركاً بالإمام محمد بن يوسف السنوسي، عالم تلمسان وصالحها في عصره، فعرفت به عائلته وانتقل بعدها إلى محمد بن علي، واستمر في عقبه.

نشأ السنوسي نشأة إسلامية، فتتلمذ على عدة مشايخ: محمد بوراس المعسكري، محمد السنوسي، محيي الدين بن شهلة ومحمد بن الكندوز الذي نال شهرة كبيرة في الإستقلال بالرأي، وفي البعد عن التزلف للحكام؛ الأمر الذي حدا بحاكم ولاية وهران إلى إعدامه عام ١٢٤٤هـ/ ١٨٢٩م، مما كان له أبعد الأثر في حياة محمد الذي ما لبث أن انتقل إلى مدينة فاس بالمغرب ومكث سبع سنين بجامعة القرويين يأخذ عن علمائها فبرع في علوم الفقه والمنطق والحساب والبلاغة... وسلك الطريقة الشاذلية على الشيخ العربي بن أحمد الدرقاوي.

ولما أنس علماء فاس منه الكفاءة العلمية أذنوا له في التدريس بجامعة القرويين، فبث فكرة الإصلاح الديني والإجتماعي، ودعا إلى جمع كلمة المسلمين حول التمسك بالكتاب والسنة قولاً وعملاً، والرجوع إلى هدي السلف الصالح، وتطهير النفوس والإبتعاد عن المنكر... وكان في وعظه وإرشاده يستعمل تارة اللين وتارة الشدة، فأثار موقفه هذا إهتمام الحكومة المغربية التي قامت بتشديد

(١) را: الصغير، إشكالية، ٣١٣ ـ ٣١٤.

الرقابة عليه؛ فكان ذلك سبباً في ارتحاله من المغرب الأقصى ١٢٤٥هـ/ ١٨٢٩م وأخذ يتجول بأنحاء الصحراء الجزائرية يلقي دروساً في الفقه وعلوم الشريعة وينشر دعوته الإصلاحية.

في تلك الأثناء حلت بالجزائر كارثة الإحتلال الفرنسي، فهزه هذا الحادث هزاً عنيفاً، ودفعه إلى التجوال في العالم العربي يدعو إلى رص الصفوف، وتوحيد الجهود لطرد المستعمرين الغاصبين. فمن طرابلس الغرب أخذ السنوسي يسهم في ثورات الجزائر ومقاومتها للفرنسيين، فساعد ثورة تلمسان والصحراء (١٢٦٥ ـ ١٢٧٨هـ/١٨٤٨ ـ ١٨٦١م) التي قادها محمد بن عبد الله، وعصيان الظهرا الذي تزعمه محمد بن تكوك (١٢٦٨هـ/ ١٨٥١م).

وفي طرابلس الغرب أسس زاوية ثانية[١] للسنوسية عُرفت بالزاوية البيضاء بالجبل الأخضر. ثم أخذ في إنشاء الزوايا التي بلغ عددها على عهده ٢٢ زاوية منتشرة ما بين ليبيا والجزائر والصحراء الإفريقية. هذه الزوايا كانت مراكز ثقافية وثكنات حربية، ورباطات جامعية ومدارس سلفية ومراكز زراعية وصناعية. فكأن السنوسي قد أراد أن يعطي المثل الحي للتصوف السليم القائم على المرابطة والجهاد والإعداد لتحرير الأوطان ومجابهة التحديات والسعي الحثيث لنشر الإسلام والتبشير به لا سيما بين الوثنيين. وهذا ما عملت السنوسية على تحقيقه.

وتجدر الإشارة إلى أن هذه الطريقة نجحت في مقاومة الإستعمار وفي مجال الإصلاح الديني والإجتماعي، وفي نشر الإسلام بين وثنيي إفريقيا.

وظل الشيخ السنوسي في جهاده ونضاله حتى وافاه الأجل بزاوية الجغبوب بليبيا عام ١٢٧٧هـ/ ١٨٥٩م. وقد خلفه ولده محمد المهدي في منافحة المستعمرين وإنشاء الزوايا[٢].

---

(١) الزاوية الأولى للسنوسي كانت في جبل أبي قبيس بمكة المكرمة.

(٢) حسن صادق، الفرق الإسلامية، ص ٢٥٢ وما بعدها؛ الجيلالي، تاريخ الجزائر العام ٤/ ٢٦٤ ـ ٢٧٣.

٦٣ ـ محمد العياشي الشهير بالمرابط

في عام ١٠٢٣هـ/ ١٦١٤م إحتل الإسبان منطقة «حلق سبو» بمرسى المعمورة، قرب مدينة سلا بالمغرب العربي. فبعث أهل سلا يستنجدون بالسلطان زيدان الذي بعث لهم الشيخ محمد العياشي على رأس فرقة من المجاهدين. وكان العياشي هو المقدم على الجهاد بناحية دكالة منذ وفاة شيخه عبد الله بن حسون. فأصبح الإقليم الممتد في أقصى المغرب العربي، وعلى الشواطيء الأطلسية، مسرح حركة العياشي الجهادية ضد التدخل الأجنبي في بلاد المغرب. وقد قام بالمهام الملقاة على عاتقه خير قيام، وتمكن من صد الأجانب عن السواحل المغربية.

وفي ١٩ محرم ١٠٥١هـ/ ٣٠ نيسان ١٦٤١م استشهد البطل العياشي غيلة، وقطع رأسه، وأرسل إلى سلا الجديدة حيث أعداؤه من أندلسيي الهورناشروس. ودفن رأسه بالقرب من روضة الشيخ أبي الشتاء، شمال مدينة فاس. وهكذا فقد قدَّم هذا المجاهد حياته رخيصة دفاعاً عن التراب الوطني من أن تدوسه أقدام المستعمرين الغاصبين. وتجدر الإشارة إلى أن ولادة هذا الشيخ كانت عام ٩٨٠هـ/ ١٥٧٣م. من أسرة من بني مالك العربية، وهي قبيلة كانت تسكن جنوب القصر الكبير[١].

٦٤ ـ محمد كاوصن

أصله من قبيلة إيكز كزن، من الطوارق الذين يعود نسبهم إلى دولة الملثمين. نزح إلى الشرق ضمن طوارق النيجر، بعد صدامهم بالفرنسيين، في بداية القرن العشرين، وصل إلى قرو وانضم للطريقة السنوسية، وصار أحد أعلامها المشهورين. ولاّه الشيخ أحمد الشريف قيادة مركز عين إيدي حيث بدأ بمهاجمة الفرنسيين في المنطقة.

---

(١) را: القادري، التقاط الدرر، ص ٦٧ وص ١١٣.

ولما هاجم الإيطاليون ليبيا رجع بعض المجاهدين الليبيين إلى ليبيا لمباشرة الجهاد ضد إيطاليا. وكان محمد واحداً منهم، فقد عاد إلى الكفرة، واستقر بواو مع محمد عابد السنوسي الذي كلفه بالزحف على فزان وتطهيرها من الإيطاليين، كما كلف معه المجاهد السنوسي محمد المهدي السني.

فقام كاوصن بمهمته خير قيام بين عامي ١٣٣٣ ـ ١٣٣٤هـ/ ١٩١٤ ـ ١٩١٥م حيث وصل إلى غدامس ودرج وسيناون والحرابة والجوشي. ثم عاد إلى مزدة ومنها إلى الكفرة حيث عينه عابد حاكماً على الجفرة التي بقي فيها ثلاثة أشهر. وبعد ذلك كلفه بتجهيز حملة الهجوم على أقدز عام ١٣٣٥هـ/ ١٩١٦م. ثم قام كاوصن بالثورة ضد فرنسا، وأشعل الصحراء الكبرى معارك على مدى أربع سنوات، حتى وفاته عام ١٣٣٨هـ/ ١٩١٩م.

اشتهر محمد بكثرة رسائله إلى سلاطين الطوارق، ومختلف القبائل من أجل نشر السنوسية، وتنظيم الصفوف وإعلان الجهاد ضد الفرنسيين[1].

٦٥ ـ محمد المكي بن محمد بن جعفر الكتاني الحسني

ولد بفاس بالمغرب عام ١٣١٢هـ/ ١٨٩٤م وبها نشأ. أجاد السباحة والرماية وركوب الخيل والضرب بالسيف. وأقبل على دراسة العلوم الدينية على والده أولاً ثم على علماء فاس. ترك موطنه مع والده وأخيه محمد الزمر في عام ١٣٢٥هـ/ ١٩٠٧م هرباً من الإستعمار الفرنسي، وتوجهوا إلى الحجاز. أخذ محمد يتنقل بين مكة والمدينة يقرأ على علمائهما ويحصل على الإجازات: من هؤلاء العلماء: علي المالكي، علي أعظم، عبد القادر الشلبي الطرابلسي، عبد الباقي الهندي الأنصاري. ثم انتقل مع والده إلى دمشق حيث نزلا في سوق ساروجا. وفي دمشق أخذ محمد العلم عن علمائها المشهورين: بدر الدين الحسني وتوفيق الأيوبي، كما لازم الشيخ أمين سويد وسلك على يديه طريق التصوف ودرس عليه الإلهيات وكتب التصوف لا سيما كتب محيي الدين بن

(١) را: القشاط، جهاد الليبيين، ص ٢٤٢ ـ ٢٤٥.

عربي. وقد شهد له شيخه سويد بطول الباع في العلوم وفي المعرفة الإلهية، وأجازه بالمعقول والمنقول والطرق الصوفية والمسلسلات والمرويات، وكان محمد قد سلك على والده من قبل الطريقة الشاذلية الدرقاوية. شارك المجاهدين السوريين في الثورة ضد فرنسا، فكان فارساً ذا بأس. وبعد مدة عاد إلى المغرب مع عائلته، واشترك هناك مع والده في الجهاد ضد الفرنسيين. ولما توفي والده عام ١٣٤٥هـ/ ١٩٢٦م رجع محمد إلى دمشق واستقربها منصرفاً إلى التدريس والإرشاد في داره وفي مختلف مساجد دمشق، وكان يدرّس شتى العلوم الفنون خاصة الحديث النبوي، رواية ودراية، والتصوف والفقه المالكي. كما نشط في تأسيس الجمعيات كجمعية تحرير المغرب العربي لدعم المجاهدين المغاربة والجزائرين ومساعدة الطلبة. وأسهم في تأسيس رابطة العلماء بدمشق، وقد أصبح رئيسها منذ ١٣٨٠هـ/ ١٩٦٠م، ورابطة العلماء بالمغرب، ورابطة شباب دمشق، وجمعية الهداية الإسلامية، وجمعية أنصار المغرب العربي وتحريره، وجمعية توسيع مسجد الشيخ الأكبر. كما أسهم في إنشاء رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة وكان عضواً فيها ممثلاً لعلماء سورية، منذ إنشائها إلى وفاته. وتولى منصب إفتاء المذهب المالكي في سورية.

وتجدر الإشارة إلى أن سلطات الإنتداب الفرنسي عرضت عليه رئاسة الجمهورية السورية فرفض.

وفي عام ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٦م لما أنشئت المقاومة الشعبية، وهو إذ ذاك نائب رئيس رابطة العلماء، تدرب مع زملائه علماء دمشق على الرمي وحمل السلاح تطبيقاً للسنة الشريفة.

وبعد حياة حافلة بالنضال والكفاح والجهاد توفي بدمشق عام ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م ودفن في مقبرة الباب الصغير[1].

(١) را: أباظة والحافظ، تاريخ علماء دمشق ٢/٩٠٩ ـ ٩١٢.

٦٦ ـ محمد المهدي السني

ابن محمد السني، ومن كبار شيوخ الطريقة السنوسية. تولى مشيخة زاوية فايا، وقاد الجهاد في شمال تشاد مساعداً لوالده، وفي فزّان بتكليف من الشيخ عابد السنوسي، ووصل إلى غدامس ونالوت يطارد فلول الطليان المنهزمين. وقد اشترك في معارك الجهاد ضد الفرنسيين بتونس. وكان المرشد الروحي والموجه لمعارك رمادة وأم صويع ووادي نكريف وذهبية؛ وكان قائد السنوسيين فيها خليفة ابن عسكر. ويعتبر الشيخ محمد من أنظف المجاهدين يداً. كما أشترك في قيادة معركة أبي غرة ١٣٤٥هـ/ ١٩٢٦م مع محمد بن حسن المشاي. ثم توجه مع والده وأخيه أحمد إلى الجنوب الليبي، لكن القوات الإيطالية اعتقلته معهما عام ١٣٤٩هـ/ ١٩٣٠م ووضعته في الإقامة الجبرية بمزدة إلى أن توفي. كما صادرت ممتلكات عائلته كلها[١].

٦٧ ـ محمد بن واسع بن جابر الأزدي

فقيه، ورع، زاهد. من أهل البصرة؛ عُرض عليه قضاؤها فأبى. وهو من ثقات أهل الحديث. قال الأصمعي «لما اشتبك قتيبة بن مسلم، صاحب خراسان، مع الترك وهاله أمرهم. سأل عن المجاهد الزاهد محمد بن واسع، فقيل: هو ذاك في الميمنة ينضنض بإصبعه نحو السماء. قال تلك الإصبع أحب إليّ من مئة ألف سيف».

وكان محمد يلبس الصوف، فدخل يوماً على قتيبة بن مسلم؛ فقال له قتيبة: «ما دعاك إلى لبس الصوف؟ فسكت، فقال له: أكلمك فلا تجيبني؟ فقال: أكره أن أقول زاهد فأزكي نفسي، أو فقير فأشكو ربي عزَّ جلَّ».

وقال له رجل: أوصني؟ فقال له: أوصيك أن تكون ملكاً في الدنيا والآخرة. قال: كيف ذلك؟ قال: إزهد في الدنيا».

(١) را: القشاط، جهاد الليبيين، ص ٢٢١ ـ ٢٢٢.

كان يشارك في الغزو بخراسان مع القائد قتيبة بن مسلم ومع يزيد بن المهلب. استشهد في إحدى معارك الجهاد في سبيل الله وهو ضاحك متهلل وذلك عام ١٢٣هـ/ ٧٤١م[١].

٦٨ ـ محمد بن يحيى بن علال العمري

تتلمذ على المشايخ: سعيد بن أبي بكر المشترائي (ت ٩٥٥هـ/ ١٥٤٨م) دفين مكناسة الزيتون، أبو عمر القسطلي، عبد الله بن حسين وغيرهم. أصله من أولاد أبي خصيب، من عرب بني مالك الذين دخلوا المغرب في أوائل عهد بني مرين. تخرّج بصحبته عدد كبير من صوفية المغرب. اشتهر الشيخ محمد باتباعه للسنة النبوية وبتمسكه بتعاليمها. وقد أُثر عنه الكثير من المكاشفات. كانت له زاوية شهيرة، ورث مشيختها عن والده يحيى. عاش فترة الخلافات الداخلية في المغرب لا سيما بين أبناء أحمد المنصور؛ كما سُجن ولده في أحد سجون السلطان زيدان. كان الشيخ محمد من أشد المعارضين لتسليم العرائش للإسبان ومن ثم الداعين إلى تحريرها. توفي عام ١٠٢٤هـ/ ١٦١٥م بعد أن عمّر طويلاً، وأقيمت على قبره روضة يقصدها الزوار[٢].

٦٩ ـ محمد بن يلّس بن شاويش الشاذلي

ولد بتلمسان في الجزائر حوالي ١٢٦٤هـ/ ١٨٤٧م. تلقى علومه الأولى بتلمسان، ثم تعرف إلى الشيخ محمد الهبري تلميذ محمد البوزيدي وأخذ عنه الطريقة الشاذلية، ولازمه ملازمة تامة. ثم أخذ يتنقل بين وهران وتلمسان. وبعد مضايقة الفرنسيين له ولأتباعه هاجر الشيخ محمد إلى دمشق عام ١٣٢٩هـ/ ١٩١١م بصحبة ولده أحمد وتلميذه محمد بن الهاشمي، ونزل بحي السويقة في جامع عز الدين؛ ثم انتقل إلى منزل الشيخ محمود أبي الشامات، شيخ الشاذلية

(١) را: غلاب، التنسك الإسلامي، ص ٥٦ وص ٧٧؛ الشعراني، الطبقات ١/ ٣٦ ـ ٣٧؛ الزركلي، الأعلام ٧/ ١٣٣؛ الأصفهاني، حلية الأولياء ٢/ ٣٤٥ ـ ٣٥٥.

(٢) را: القادري، التقاط الدرر، ص ٦٧ ـ ٦٨.

بدمشق آنذاك. ثم استقر أخيراً بحي الشاغور، في منطقة الصمادية، حيث أنشأ زاوية وأقام دروساً وحلقات علمية. ولما دخل الفرنسيون دمشق، قارعهم، وكان مُراً عليهم رغم كبر سنه، فألقوا القبض عليه وحبسوه في سجن القلعة الأمر الذي حدا بالشيخين محمد بن جعفر الكتاني وبدر الدين الحسني، محدث دمشق، إلى مقابلة الحاكم العسكري الفرنسي الجنرال جو نقيل بشأنه. ولما سمع أبناء دمشق بخبر القبض على الشيخ محمد أغلقوا المحلات التجارية، وقاموا بتظاهرة إلى مقر الحاكم العسكري خلف الشيخين السالفي الذكر، فخاف الحاكم وسارع إلى إطلاق سراح الشيخ محمد.

توفي هذا المجاهد بدمشق عام ١٣٤٦هـ/ ١٩٢٩م ودفن في مقبرة الباب الصغير. وتخليداً لذكراه بُني في وهران بالجزائر مسجد وزاوية يحملان إسمه. ومن بعده تسلم ابنه أحمد إدارة الزاوية بدمشق، ومن بعده الشيخ محمد بن الهاشمي[١].

٧٠ ـ محمد بن يوسف بنِ الياس القونوي

فقيه حنفي، تركي الأصل، مستعرب. ولد في قونية عام ٧١٥هـ/ ١٣١٥م وفيها تعلم. ثم قدم إلى دمشق بأهله وولده، فأقام بالمزّة يعمل هو وأولاده في بستان كان فيه سكنه، ويعيشون منه. وكان زاهداً ورعاً لا يقبل وظيفة له ولا لأولاده، بالرغم من علو منزلته لدى السلاطين والأمراء والقضاة. كان يتدرب مع أولاده على أعمال الفروسية وآلات القتال، ويشارك في الغزو. بنى الشيخ محمد برجاً على الساحل لرصد وردِّ هجمات المغيرين على الديار الإسلامية. توفي بالمزة عام ٧٨٨هـ/ ١٣٨٦م له عدة مؤلفات في الحديث والفقه وأصول الدين[٢].

(١) أباظة والحافظ، تاريخ علماء دمشق، ١/ ٤٢٧ ـ ٤٢٨.
(٢) را: الزركلي، الأعلام ٧/ ١٥٣.

٧١ ـ مروان المجذوب المصري

كان يتجول في شوارع القاهرة وأسواقها، ويقاوم المنكر بيده. وكان يشارك في الغزو لا سيما أيام حكم السلطان سليمان العثماني. وقد حضر فتح جزيرة رودس، وقد أصيب بجروح كثيرة. وكان أهالي مصر يتناقلون أخباره في المعارك والغزوات. توفي عام ٩٥٥هـ/ ١٥٤٨م ودفن في جامع البنهاوي، خارج باب الفتوح[١].

٧٢ ـ مسلمة بن نعمة السروجي

كانت له زاوية في مدينة سُروج[٢]. وهو أحد تلاميذ الشيخ عقيل المنبجي.

كان مريدون كثر يرابطون معه في هذه المدينة الحدودية، فلما هاجمها الإفرنج والأرمن وأعملوا فيها السيف فقتلوا وأسروا، حتى وصلوا إلى زاويته، فصمد مع مريديه حتى كان الغد؛ فإذا بجيش عظيم من المسلمين يهاجم هذا الخليط ويستأصل شأفتهم ويمزقهم كل ممزق[٣].

٧٣ ـ المهدي بن محمد بن علي السنوسي

والده الشيخ محمد بن علي السنوسي (١٢١١ ـ ١٢٧٧هـ/ ١٧٩٦م) مؤسس الحركة السنوسية التي تتلخص تعاليمها في جهاد النفس، والعودة بالإسلام إلى بساطته وصفائه. وقد أنشأ الشيخ محمد زاوية في واحة الجغبوب واستقر فيها. ولاقت دعوته إقبالاً عظيماً في برقة وغيرها من الأقاليم الليبية. وقبيل وفاته قُدر عدد زوايا السنوسية بـ ٢٢ زاوية عام ١٢٧٦هـ/ ١٨٥٩م.

(١) را: النبهاني، جامع كرامات ٢/ ٤٦٦ ـ ٤٦٧.
(٢) سُروج: مدينة في ديار مضر، بين بيره جيك وأورفة. فتحها العرب أيام عمر بن الخطاب (ض) ١٨هـ/ ٦٣٩م. بقيت تحت حكم الصليبيين مدة (فردينان توتل، المنجد في الأدب والعلوم (بيروت ١٩٥٦) ص ٢٥١).
(٣) را: النبهاني، جامع كرامات ٢/ ٤٧٠.

ولد المهدي بالبيضاء بالجبل الأخضر الليبي في أول ذي القعدة عام ١٢٦٠هـ/ ١٢ أيلول ١٨٤٤م. درس في زاوية والده على يد مجموعة من شيوخ الدين. وبعد وفاة هذا الوالد، تولى المهدي شؤون الدعوة بمساعدة مجلس وصاية لأنه كان صغير السن. وفي عهده انتشرت السنوسية إلى شمال تشاد والنيجر حيث أسس عدة زوايا سنوسية في قرو والعلالي وعين كلكا وغيرها. وقد بلغ تعدادها عام ١٣٠٢هـ/ ١٨٨٤م مئة زاوية. وفي عام ١٣١٣هـ/ ١٨٩٥م قام بنقل المركز الرئيسي لزوايا السنوسية من الجغبوب إلى الكفرة إلى واحة التاج، وبدأ يشرف على انتشار الدعوة في السودان؛ لكن الفرنسيين كانوا له بالمرصاد؛ فحاربهم واشتبك معهم في عدة معارك انتهت باستشهاده في إحداها (بقرو) يوم الأحد ٢٣ صفر ١٣٢٠هـ/ ٢ أيار ١٩٠٢م. ومن بعده تولى أمر الدعوة ومقارعة الفرنسيين ابن أخيه الشيخ أحمد الشريف[1].

٧٤ ـ ولي غومبا الشاذلي

غيني، اشتهر بثقافته الواسعة وبتقواه. كان يعكف على الصوم والزهد والإعتزال. وكان يشد أزره بـ ١٧ ألف مقاتل من البيل ضد ٧٠ ألفاً من السوسو. لكن تأثيره على الأهالي أقلق الإدارة الفرنسية التي اعتبرته متعصباً خطراً، فقررت اعتقاله ليلة الخميس ـ الجمعة في ٣٠ آذار ١٣٢٩هـ/ ١٩١١م وهي الليلة التي تخصصها فرقته لإقامة حلقة الذكر. واسفرت عملية الهجوم عن مصرع ضابطين فرنسيين واثني عشر قناصاً، ولجوء الشيخ إلى سير اليون. لكنه عاد بعد ذلك واستسلم، فحكم عليه بالإعدام. توفي في السجن عام ١٣٣٠هـ/ ١٩١٢م[2].

(١) را: مصطفى الرفعي، الدعوة والدعاة في الإسلام (طرابلس ١٩٧٧) ص ١٠٩؛ القشاط، جهاد الليبيين، ص ٢١٤ ـ ٢١٥؛ ألبرت الريحاني، الموسوعة العربية (بيروت ١٩٥٥) ص ٤٢١ ـ ٤٢٢؛ دائرة المعارف الإسلامية ١٢/ ٢٩٣.

(٢) را: فنسان، الإسلام في إفريقية، ص ١٤٥ ـ ١٤٦.

٧٥ ـ يحيى بن يوسف بن يحيى الصرصري

من أهل صرصر القريبة من بغداد. ولد عام ٥٨٨هـ/ ١١٩٢م. قرأ القرآن على تلاميذ ابن عساكر البطائحي، وسمع الحديث وسلك الطريقة القادرية على الشيخ علي بن إدريس اليعقوبي، صاحب الشيخ عبد القادر الجيلاني، مؤسس الطريقة القادرية. برع الشيخ يحيى في الفقه والشعر واللغة بالرغم من أنه كان كفيف البصر. لما دخل التتار بغداد ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م طلبه ابن هولاكو فأبى، وأعدّ في داره حجارة. وحين دخل عليه التتار رماهم بتلك الحجارة فهشّم بعضهم، ثم لما وصلوا إليه قتل أحدهم بعكازه، وتمكنوا أخيراً من قتله فمات شهيداً، في وقت كان من يقتل تترياً يعتبر من الأبطال، لأن الأمة كان قد أصابها الوهن والخنوع. وقد حُملت جثته إلى صرصر حيث دفن هناك. له ديوان شعر وقصائد عديدة في موضوعات الفقه الحنبلي وفي البلاغة.

كذلك له ديوان المنتقى من مدائح الرسول ﷺ. كان في عصره يشبه حساناً شاعر الرسول ﷺ:

«إن الرسولَ لنورٌ ليس يدركُهُ ... نقصُ المِحاقِ ولا يُخفيه تأفيلُ
يا سيدَ الناسِ في الدنيا وسيدَهمُ ... يومَ القيامةِ منكَ الخيرُ مأمولُ»[1]

٧٦ ـ يوسف بنَ تاشفين

ولد بصحراء المغرب عام ٤١٠هـ/ ١٠١٩م. اشتهر بالشجاعة والزهد والتفقه في الدين. تولى قيادة جيوش ابن عمه أبي بكر بن عمر، سلطان المرابطين الملثمين. وتم له فتح بلاد السودان (وسط وغرب أفريقيا). وبعد وفاة السلطان ٤٦٢هـ/ ١٠٦٩م إتفقت كلمة شيوخ المرابطين على توليته الإمارة لما يعرفون عنه

(١) را: ابن كثير، البداية والنهاية ١٣/ ٢٢٤؛ القنوجي، التاج المكلل، ص ٢٤٧؛ الزركلي، الأعلام ٨/ ١٧٧؛ يوسف النبهاني، المجموعة النبهانية (بيروت ١٣٢٠هـ) ٣/ ٢٩؛ عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي (بيروت ١٩٨١) ٣/ ٥٨٤؛ ابن رجب الحنبلي، كتاب الذيل على طبقات الحنابلة ٢/ ٢٦٢ ـ ٢٦٣؛ كحالة، معجم ١٣/ ٢٣٦؛ الكتبي، فوات الوفيات ٤/ ٢٩٩؛ البغدادي، هدية العارفين ٢/ ٥٢٣.

من تدين وشجاعة وحزم وعدل وسداد رأي. ثم استطاع أن يوحد بلاد المغرب العربي تحت سلطته، وأن يبني مدينة مراكش عام ٤٦٥هـ/ ١٠٧٢م ويجعلها عاصمة لملكه.

لقد كان ابن تاشفين عابداً ورعاً، مقبلاً على الجهاد في سبيل الله، إعلاء لكلمة الحق والدين، ودفاعاً عن المسلمين المستضعفين؛ لذلك أيده الله تعالى بالنصر في كل المعارك التي خاضها.

في هذا الوقت كانت بلاد الأندلس تعيش فترة من الإضطراب والتناحر، مما زاد في انقسامها إلى دويلات عرفت باسم دول أو ممالك الطوائف، وعرف حكامها بأمراء أو ملوك الطوائف. ومن أهم هذه الممالك أو الإمارات: إمارة بني عباد في إشبيلية، بني الأفطس في بطليوس، بني هود في سرقسطة، بني زيري في غرناطة، بني ذي النون في طليطلة... وقد تحولت الأندلس على أيديهم إلى أشلاء ممزقة، وأصبحت القصور مركزاً للدسائس والمؤامرات التي يحيكها الأخ لأخيه، وابن العم لابن عمه؛ وشهدت أرض الأندلس المعارك الطاحنة بين هؤلاء الذين كانوا في كثير من الأحيان يستعينون بالملوك الأسبان المتاخمين لحدودهم ضد إخوانهم وأقربائهم. فانتشر الصراع بين الأندلسيين، وسيطرت الأنانية، واستفحلت الأطماع، وعمّت الألقاب الطنانة الرنانة، مما دفع الشاعر إلى السخرية منهم بهذين البيتين اللذين صارا مضرباً للمثل عن كل إنسان وضيع يدعي لنفسه العظمة والبأس:

«مما يُزهِّدني في أرضِ أندلسٍ   أسماءُ معتضدٍ فيها ومعتمدِ
ألقابُ مملكةٍ في غيرِ موضعِها   كالهِرِّ يحكي انتفاخاً صولةَ الأسدِ».

هذه الحروب والفتن أفقدت الأندلس مواردها الإقتصادية؛ أضف إلى ذلك أن أمراء الطوائف هؤلاء قد اتخذوا القصور الفخمة، واهتموا بمجالس اللهو والطرب، ولم يكترثوا لأحوال الأمة المتردية، ولم يلحظوا أنه على مقربة منهم عدو يتربص بهم الدوائر. وكان هؤلاء الملوك يدفعون جزية باهظة للإسبان، إتقاء لشرهم، وطلباً لمساندتهم على بني جلدتهم. فأثقلوا كواهل الرعايا، وتنازلوا للإسبان عن بعض القلاع والحصون الهامة، الأمر الذي حدا بالإسبان

إلى استرجاع العديد من المدن والقرى، والإمعان في قتل وسبي المسلمين، يساعدهم في تحقيق ذلك فرسان من فرنسة وإيطاليا. ولعل الملك الفونس السادس هو أشهر ملوك الإسبان الذين ضيّقوا الخناق على أهالي الأندلس، وأخذ يستولي على القلاع والحصون والمدن لا سيما مدينة طليطلة التي ظلت بأيدي المسلمين زهاء ثلاثمئة وسبعين سنة. وكان معظم ملوك الطوائف يحجمون عن مساعدة إخوانهم؛ بل كانوا يعقدون التحالفات مع الفونس، ويمدونه بالمال حتى يسكت عنهم ويقدم لهم العون العسكري ضد أعدائهم من الأمراء المسلمين.

وكان لسقوط طليطلة أثر عظيم، في نفوس أهل الأندلس قاطبة، لا سيما بعد أن جعل الفونس منها عاصمة لمملكته. كما هدد باقي المدن الأندلسية بالمصير عينه. وقد عبّر الشاعر عبد الله بن فرج اليحصبي المشهور بابن العسّال عن مشاعر المرارة واليأس عند الأندلسيين:

«يا أهل أندلس حُثُّوا مطيّكمُ   فما المقامُ بها إلا مِنَ الغلطِ
الثوبُ ينسلُ من أطرافِهِ وأرى   ثوبَ الجزيرةِ منسولاً من الوسطِ
ونحنُ بينَ عدوٍ لا يفارقنا   كيفَ الحياةُ مع الحياتِ في سفطِ»

هذه الفاجعة التي حلت بطليطلة، أيقظت ملوك الطوائف من سباتهم، ودفعتهم إلى الندم على تقصيرهم عن نجدتها، وأخذوا يبحثون عن السبيل الذي يرد عنهم الأخطار المحدقة بهم، فاجتمعت كلمتهم لأول مرة على استصراخ إخوانهم المرابطين في المغرب العربي. وأخذت الوفود الأندلسية تتوالى على سلطان المرابطين وقائد المجاهدين العابد الزاهد يوسف بن تاشفين، تسأله مديد العون والنصرة، مجهشين بالبكاء، ناشدين الله والإسلام.

فكان يستمع إليهم ويصغي لأقوالهم وترق نفسه لهم. ولما عاث جيش ألفونس ببلاد الأندلس تخريباً وتدميراً، بعث برسالة إلى المعتمد بن عباد، صاحب إشبيلية، تحمل الكثير من السخرية والإستخفاف به، فأجابه المعتمد: «قرأت كتابك وفهمت خيلاءك وإعجابك، وسأنظر لك في مراوح الجلود اللمطية (يصنع منها التروس الصلبة) في أيدي الجيوش المرابطية تريح منك لا تروّح عليك». والمعتمد هو الذي قال الكلمة المشهورة: «لئن يرعى أولادنا جمالهم

(للمرابطين) أحب إليهم من أن يرعوا خنازير الفرنج».

وبلغ الإستهزاء بالمسلمين عند ألفونس مبلغاً كبيراً فأرسل إلى المجاهد ابن تاشفين متحدياً ومتوعداً «ولم يخف ما عليه رؤساؤكم بالأندلس من التخاذل والتواكل، وأنا أسومهم الخسف فأخرب الديار وأهتك الأستار. وبلغنا عنك أنك في الإحتفال على نية الإقبال؛ فإن كنتَ لا تستطيع الجواز فابعث إليَّ ما عندك من المراكب لأجوز إليك وأنا أقاتلك في أحب البقاع إليك».

فأمر أمير المرابطين، وقائد المجاهدين أن يُكتب على ظهر كتابه ما يلي: «جوابك يا إذفنش ما تراه لا ما تسمعه إن شاء الله». وأردف الكتاب ببيت أبي الطيب المتنبي:

«ولا كتبَ إلا المشرفية والقنا   ولا رسلَ إلا الخميسُ العرمرمُ».

واستنفر السلطان جنوده، وجاز بهم البحر إلى أرض الأندلس حيث نزل في الجزيرة الخضراء، فاستقبله أهلها بما عندهم من الأقوات والضيافات. وبعد أن قام بتحصين المدينة وترميم أبراجها وأسوارها، وضع فرقة من جيشه لحراستها. ثم توجه إلى إشبيلية حيث استقبل أيضاً بالحفاوة والتكريم. وكان السلطان قد طلب من جميع رؤساء الأندلس اللحاق به لخوض معركة الجهاد، فلبى ملوك الطوائف دعوته وأمدوه بعدة فرق من الفرسان، وهُرع المتطوعة من سائر أنحاء الأندلس رغبة في الجهاد. وانتقلت هذه الجيوش بقيادة المرابط ابن تاشفين إلى مدينة بطليوس حيث نزلوا بظاهرها. قام ابن تاشفين بتنظيم الجيوش الإسلامية في معسكرين كبيرين: القوات الأندلسية والتي نظمت على شكل خميس: المعتمد بن عباد (صاحب إشبيلية) في قلب المقدمة، المتوكل الأفطس (صاحب بطليوس) في ميمنتها، أهل شرق الأندلس في ميسرتها، وسائر أهل الأندلس في الساقة.

أما قوات المرابطين فكانت تحتل المؤخرة، وتضم قوة من الفرسان بقيادة داود بن عائشة، ثم الجيش الإحتياطي بقيادة ابن تاشفين. وكانت كل هذه الفرق على شكل كمائن متفرقة تخرج من كل جهة عند اللقاء.

وفي المعسكر المقابل كان ألفونس يحاصر مدينةَ سرقسطة، فلما بلغه نبأ وصول المرابطين إلى الأندلس، اضطر إلى رفع الحصار، وقام بعقد تحالفات مع أمراء

الإسبان، واستقدم أكبر عدد من الجنود؛ كما انضمت إليه أعداد جمة من الفرسان المتطوعة من إيطاليا وجنوب فرنسة، ونزلت هذه القوات مجتمعة قبالة جيش المسلمين، حيث لا يفصل بينهما سوى أحد فروع وادي آنة. وكان ألفونس قد حرص على أن تجري المعركة في أراضي المسلمين، وذلك حماية لبلاده إذا ما مُني بالهزيمة. أما عن تقدير أعداد الجنود التي شاركت في هذا الحشد، فالروايات تختلف، وكل مؤرخ يعطي أرقاماً تختلف عن المؤرخ الآخر؛ لكن من المتفق عليه أن جيش المسلمين كان أقل عدداً من جيش الاسبان.

وقبيل نشوب المعركة، أرسل السلطان كتاباً إلى ألفونس، عملاً بأحكام السُّنة النبوية، يعرض عليه فيه: الدخول في الإسلام أو الجزية أو الحرب. وجاء فيه أيضاً: «وقد بلغنا يا اذفنش أنك دعوت إلى الاجتماع بك، وتمنيت أن يكون لك فُلك تعبر البحر عليها إلينا، فقد اجتزناه إليك، وجمع الله في هذه العرصة بيننا وبينك، وسترى عاقبة دعائك. ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾[غافر٥٠].

ولما وصل الخطاب إلى ألفونس استشاط غضباً وحقداً، وسرعان ما لجأ إلى الحيلة، فكتب إلى السلطان بأن يكون اللقاء بين الجيشين يوم الإثنين: «إن غداً يوم الجمعة وهو عيدكم، وبعده السبت عيد اليهود وهم كثيرون في محلتنا، وبعده الأحد وهو عيدنا». فوافقه السلطان على ذلك، لكن المعتمد بن عباد أشار على السلطان بالتأهب والإستعداد قبل اليوم المحدد للقتال، لأنه يعرف مكائد ألفونس وحيله. وبالفعل فقد زحف الفونس بقواته وفاجأ الجيش الإسلامي بالهجوم يوم الجمعة ١٢ رمضان ٤٧٩هـ/ ٢٢ تشرين الأول ١٠٨٦م[1] حيث دارت رحى تلك المعركة العظيمة في فحص الزلاقة، على أحد نهيرات وادي آنة الذي يسمى حالياً بنهر جيريرو على بعد نحو إثني عشر كيلو متراً إلى الشمال الشرقي من مدينة بطليوس. إشتبكت مقدمة القشتاليين والأرغونيين بقيادة البرهانس مع مقدمة الأندلسيين بقيادة المعتمد بن عباد. وكان اشتباكاً عنيفاً أدى إلى تقهقر الأندلسيين، وفرار بعضهم إلى نواحي بطليوس، وذلك قبل وصول

(١) في دائرة المعارف الإسلامية ١٢ رجب، في شذرات الذهب أول جمعة من رمضان، فروخ ١٢ رمضان، ابو الفداء أول جمعة من رمضان.

النجدة من المرابطين. وفي هذا الإشتباك أظهر ابن عباد مع فرسانه من ضروب الفروسية والشجاعة ما أدهش العقول، حتى أنه أثخن بالجراح. ولما علم السلطان بتراجع الأندلسيين أرسل فرقة من القوات المغربية بقيادة داود بن عائشة لمؤازرتهم، فاستطاع أن يخفف من شدة هجوم الإسبان على ابن عباد؛ ثم أمدهم بقائده سير ابن أبي بكر، وسار هو في أثرهم بجيشه المكون من قبيلة لمتونة وقبائل المرابطين من صنهاجة حيث توجه إلى معسكر الإسبان فأضرم فيه النار، ثم شن هجوماً مفاجئاً على جيوش ألفونس وأثخن فيهم قتلاً؛ فتقهقرت جيوش ألفونس. ولما علم الأندلسيون بالأمر إنقلبوا من الفرار إلى الهجوم وأطبقوا على الإسبان من كل جانب. وتمكنت قوات السلطان من كسر صفوف قوات الفونس الذي تمكن بعد خسائر فادحة من الرجوع إلى مكانه. ثم استؤنف القتال فقاتل المرابطون في صفوف متراصة. ولما حمي الوطيس دفع السلطان بفرقة من حرسه السودان وقوامها أربعة آلاف مقاتل؛ وكانوا مسلحين بمزاريق الزان وسيوف الهند ودرق اللمط؛ فانقضوا كالصاعقة على الإسبان، وتمكن أحدهم من طعن ألفونس في فخذه طعنة بالغة ظل أثرها ظاهراً بقية عمره. وانجلت المعركة عن هزيمة ساحقة للإسبان حيث يذكر أن أرض المعركة، على إتساعها، كانت ملأى بجثث القتلى وأشلائهم. وتمكن ألفونس بعد إصابته من الفرار مع أقل من خمسمائة من فرسانه ومعظمهم جرحى. بينما كان بقية جيشه ما بين قتيل وأسير.

لقد كان المرابط ابن تاشفين خلال المعركة على صهوة جواده، يحرِّض المسلمين على الثبات، ويقوّي في نفوسهم روح الجهاد، كما كان لطبوله دوي هائل اهتزت له الأرض مما أزعج جنود ألفونس وأجفل خيولهم. كما أن استخدام المرابطين للإبل لأول مرة في الأندلس أربك الإسبان وأذهلهم.

«وهكذا انتهت موقعة الزلاقة بانتصار حاسم للمسلمين، ويرجع ذلك إلى الخطة الجديدة التي اتخذها يوسف حيث جعل المرابطين صفوفاً متراصة ملتحمة وثابتة كأنها رجل واحد. وعمل من جانبه على تحريض المسلمين وتقوية عزائمهم على جهاد أعدائهم، وترغيبهم في الإستشهاد في سبيل الله، فقاتل المسلمون: أندلسيون ومغاربة، قتال مَنْ يطلب الشهادة ويتمنى الموت».

وتجلّت عظمة هذا الفارس المغوار عندما رفض أن يأخذ شيئاً من الغنائم الوفيرة التي غنمها المسلمون في الزلاقة، بل آثر بها الأندلسيين.

وبعد المعركة جمع السلطان أمراء الطوائف وأمرهم بالإتفاق والإئتلاف فيما بينهم، وأن تتوحد كلمتهم لأن الإسبان لم يتمكنوا منهم إلا بفضل تشتتهم واستعانة بعضهم بالإسبان على إخوانهم وابناء عمومتهم؛ فوعده الجميع بتحقيق ذلك. ثم قفل السلطان عائداً إلى المغرب؛ مما يدل على أنه كان يجاهد فقط في سبيل الله وحده لا لمغنم ولا لمطمع ولا لصيت أو شهرة أو أي عرض من أعراض الدنيا الفانية.

وبعد أن رجع إلى مراكش نقش على ديناره: «لا إله إلا الله محمد رسول الله». وتحت ذلك أمير المسلمين يوسف بن تاشفين» وكتب في الدائرة «ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين».

ولقد حصر المؤرخون نتائج هذه المعركة بـ:

١ - رفع الروح المعنوية للأندلسيين، وتقوية نفوسهم وإنعاش آمالهم في العيش بالأندلس بعدما كانوا في حالة يرثى لها من الذل والخضوع لملك قشتالة.

٢ - إنقاذ غرب الأندلس من غارات الفونس المدمرة، ورفعه الحصار عن سرقسطة التي كانت على وشك السقوط.

٣ - إحباط مخطط ألفونس الذي كان يمهد له منذ سنوات طويلة لاحتلال الأندلس؛ فأصبح ومن معه رهينة الرعب والذعر.

٤ - قيام كنيسة روما بتجميع القوى المسيحية المختلفة إستعداداً لمحاربة الأندلسيين.

٥ - كشفت المعركة النقاب عن الخلافات والإنقسامات التي كانت سائدة بين أمراء الطوائف، وأدت إلى تقوية مركز المعتمد بن عباد بين أهل الأندلس، نظراً لبلائه الحسن في الزلاقة، ولأنه هو الذي استنجد بالمرابطين.

٦ - أمدّ هذا النصر في عمر الوجود الإسلامي بالأندلس عدة قرون، كما أنه

مهّد السبيل لسيطرة المرابطين عليها.

وقد أشاد الأدباء والشعراء بهذه الوقعة ومنهم لسان الدين بن الخطيب:

«ونصرَ الدين ابنُ تاشفين بمَنْ لديهِ مِن حُماةِ الدين
وبهرتْ آثارُه المشكورَة وأوقع الزلّاقةَ المشهورة».

لكن ملوك الطوائف سرعان ما عادوا سيرتهم الأولى من التناحر والتقاتل فيما بينهم، وإلى الإستعانة بملوك الفرنجة على إخوانهم وأبناء عمومتهم. مما حدا بابن تاشفين إلى العودة مجدداً إلى الأندلس والإستيلاء على دويلات الطوائف؛ وبذلك أصبح سلطاناً لدولة واسعة تمتد من غمبيا جنوباً حتى الجزائر والأندلس.

توفي السلطان بمراكش في مستهل محرم ٤٨٩هـ/ ٢ أيلول ١١٠٦م بعد حياة مليئة بالجهاد والدفاع عن أرض الإسلام ونجدة المؤمنين المضطهدين[١].

---

(١) را: شعيب، دور المرابطين، ص ٢٨ ـ ٦٩؛ المقري، نفح الطيب ٤/ ٣٥٤ ـ ٣٦٨؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر ٢/ ١٧٥ وص ١٩٨ وص ٢٢١ و ٣/ ١٣١؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان ٥/ ٢٨ ـ ٣٠ و٧/ ١١٥ ـ ١١٧؛ الحنبلي، شذرات الذهب ٣/ ٣٦٢؛ الريحاني، الموسوعة العربية، ص ٧١١؛ محمد الصادق عرجون، أبو حامد الغزالي المفكر الثائر (القاهرة دون تاريخ) ص ٣١؛ اليافعي، مرآة ٣/ ٢٧١؛ عطية الله، القاموس الإسلامي ١/ ٤٣١ ـ ٤٣٢؛ فروخ، تاريخ الأدب ٤/ ٥٤٩ ـ ٥٥٠ و ٥/ ٣٣ ـ ٣٤؛ دائرة المعارف الإسلامية ١٠/ ٣٧٠؛ الزركلي، الأعلام ٨/ ٢٢٢؛ الجيلالي، تاريخ الجزائر العام ١/ ٣٠٨ ـ ٣٠٩.

الختام

وبعد، فهذه صفحات من جهاد بعض شيوخ الصوفية، وهي غيض من فيض، هؤلاء الشيوخ الذين تركوا الترف والنعيم، ولذة الدنيا وزخرفها، وآثروا الفوز بالجنان، ونيل رضى الرحمن، قد عرضنا صوراً من جهادهم ونضالهم لإعلاء كلمة لا إله إلا الله، حتى يطّلع الجميع على مبلغ تضحياتهم وبطولتهم، الأمر الذي يزيل ما علق في أذهان الكثيرين من أن الصوفية الدراويش كانوا منعزلين عن الأمة وعن معاركها الفاصلة.

ونقدم هذه الصور البطولية بصفة خاصة إلى الذين يحبون دائماً أن يشوّهوا صورة التصوف والصوفية، ونسألهم: أين آثاركم وأين بطولاتكم في ساحة الشرف والفداء، ساحة الجهاد في سبيل الله؟.

والواقع أن الزهاد الحقيقيين هم رهبان الليل، ورواد المحاريب، الذين يعيشون في أوقات السلام مطمئنين هادئين، يأكلون من كسب حلال، ويمدون يد المعونة لكل محتاج؛ حتى إذا ادلهمت الخطوب، وأتت ساعة الكفاح، ودُق ناقوس الخطر، ونادى المنادي حي على الجهاد، انقلبوا إلى أسد الوغى، وفرسان الجهاد، وطلاب الشهادة، وطليعة المجاهدين ملبين في ذلك نداء الله تعالى: ﴿انفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [التوبة ٤١].

نحن لا ندعي أن كل صوفي كان يجاهد الأعداء وينافحهم، فهناك فئات من المتصوفة المدّعين قد أخذوا على عاتقهم الترحيب بالعدو والإستسلام له، أو على الأقل مالوا إلى الخمول والخنوع واللامبالاة. نقول عنهم بأنهم متصوفة مدّعون، لأننا لا نفهم التصوف إلا مرابطة وجهاداً ونضالاً وتضحية في سبيل الله تعالى؛ لأن الصوفي الحقيقي هو الذي يتلو القرآن الكريم ويتدبر معانيه، ومعلوم أن آيات القرآن تحض على الجهاد بكل أشكاله، وتبيّن ما أعدّه المولى عزّ وجلّ للمجاهدين والشهداء من الأجر العظيم والثواب الكبير. كذلك الصوفي الحقيقي هو الذي يجعل الرسول الأعظم قدوته الصالحة، ومعلوم أنه ﷺ كان يحض

المؤمنين على الجهاد في سبيل الله وتقديم الأموال والأنفس حتى تكون كلمة الله هي العليا.

مما تقدم يتضح عدم دقة العبارة التي تعلن بأن «موقف المتصوفين كلهم من الكفاح في الحياة، ومن الدفاع عن الوطن والحفاظ على الوحدة السياسية والقومية والدينية أيضاً، كان موضع ريبة»[١].

ولما كان المسلمون اليوم مستضعفين مشتتين، تتوالى عليهم المحن والنكبات، ويطمع فيها الطامعون، ويقضم أراضيهم الناهبون، وينهش أعراضهم الأرذلون، ويدوس كرامتهم الطغاة المستبدون، ويستذلهم الجبارون... وبالمقابل لا غيرة إسلامية، ولا حمية ملية، ولا بذل مال أو تضحية بنفس في سبيل الله، لا بل لا تجارة مع الله تعالى تنجي من عذابه وتوصل إلى جنانه؛ بل ركون إلى الحياة الدنيا، واهتمام زائد بالمصالح الفردية والأنانية، وإسراف وتبذير في سبيل الشهوات والملذات، ولا تراحم بين المسلمين ولا تواد، ولا تضحية في سبيل رفع شأنهم، ولا اكتراث لأمرهم...

لذلك أضحى الجهاد اليوم فرض عين على كل مسلم ومسلمة؛ لأنه هو السبيل الوحيد لدفع أذى الأعداء، ورد الغارات الظالمة التي تحاول إقتلاع الإسلام من جذوره، وهو الوسيلة الناجحة لجعل الأمة عزيزة الجانب، عظيمة الهيبة، حقيقة السيادة.

والجهاد المطلوب اليوم هو الجهاد بإطلاق: جهاد النفس والهوى وجهاد الكلمة عند السلطان الجائر، وجهاد البحث والدرس والإختراع والإكتشاف، والجهاد الحربي ببذل المال والنفس رخيصة في سبيل الله تعالى، ودفاعاً عن الأرض والعرض، وذوداً عن المظلومين والمستضعفين، وإعلاء لكلمة الحق والدين؛ لأن كل من قاتل تحت راية لا تمت للإسلام بصلة، فهو من المخدوعين والمضللين، ولا تنطبق عليه شروط الشهادة:

«ولستُ أبالي حينَ أُقتلُ مسلماً   على أيِّ شقٍ كان لله مصرعي».

(١) فروخ، تاريخ الأدب ٣/٤٠.

فلنقبل على الجهاد بأنواعه المتعددة، وحسب الإستطاعة، لئلا يكون مصيرنا الذل والهوان والضياع، وخسران الأرض والمال والعرض، وينطبق علينا قول الرسول ﷺ: «ما ترك قوم الجهاد إلا عمهم الله بالعذاب»[١].

فالجهاد يُبقي رؤوس هذه الأمة مرفوعة، ونفوسها أبيَّة، وجانبها عزيزاً، وبيضتها مصونة، وأرضها مطهرة من دنس الأعداء. ولقد علم السلف الصالح أنه ليست هناك سوى ميتة واحدة فحرصوا على أن تكون في سبيل الله.

(٢) حسن أيوب، الجهاد والفدائية، ص ١٢٧، رواه الطبراني بإسناد حسن.

المراجع

١ - ابن أبي الدنيا، كتاب مجابي الدعوة، تحقيق مؤسسة الرسالة (بيروت ١٩٨٤).

٢ - ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس (بيروت ١٩٧٧).

٣ - ابن رجب الحنبلي، كتاب الذيل على طبقات الحنابلة (بيروت دار المعرفة).

٤ - ابن عبد ربه، العقد الفريد، تحقيق أحمد أمين ورفاقه (بيروت ١٩٨٣).

٥ - ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب (بيروت ١٩٧٩).

٦ - ابن قتيبة الدينوري، عيون الأخبار، الحرب والفروسية (دمشق ١٩٧٧).

٧ - ابن كثير، البداية والنهاية، تحقيق أحمد أبو ملحم ورفاقه (بيروت ١٩٨٧).

٨ - ابن الملقن، طبقات الأولياء، تحقيق نور الدين شريبة (بيروت ١٩٨٦).

٩ - ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، تحقيق عدة أساتذة (دمشق ١٩٨٤).

١٠ - أبو الأعلى المودودي، الجهاد في سبيل الله (بيروت دار الفكر دون تاريخ).

١١ - أبو الحسن الندوي، المسلمون في الهند (دمشق ١٩٦٢).

١٢ - أبو عبد الرحمن السلمي، طبقات الصوفية، تحقيق شريبة (حلب ١٩٨٦).

١٣ - أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر أو تاريخ أبي الفداء (بيروت دار المعرفة).

١٤ - أبو نعيم الأصبهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (بيروت ١٩٨٠).

١٥ - أحمد الشرباصي، فدائيون في تاريخ الإسلام (بيروت ١٩٧٠).

١٦ - أحمد عطية الله، القاموس الإسلامي (القاهرة ١٩٦٣).

١٧ - أحمد فضل باشا، الأنوار النبوية (استنبول ١٣٢٩).

١٨ - أحمد المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس (بيروت ١٩٦٨).

١٩ - أديب حرب، التاريخ العسكري والإداري للأمير عبد القادر الجزائري (الجزائر ١٩٨٣).

٢٠ - إسماعيل البغدادي، هدية العارفين (بيروت ١٩٨٢).

٢١ - ألبرت الريحاني، الموسوعة العربية (بيروت ١٩٥٥).

٢٢ - جلال الدين السيوطي، أربعون حديثاً في فضل الجهاد، تحقيق مرزوق إبراهيم (القاهرة ١٩٨٨).

٢٣ - جوانفيل، القديس لويس، ترجمة حسن حبشي (القاهرة ١٩٦٨).

٢٤ - حسن أيوب، الجهاد والفدائية في الإسلام (بيروت ١٩٨٣).

٢٥ - حسن صادق، الفرق الإسلامية (القاهرة ١٩٩١).

٢٦ - الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد (القاهرة ١٩٣١).

٢٧ - خير الدين الزركلي، الأعلام (بيروت ١٩٧٩).

٢٨ - الشنتناوي وخورشيد ويونس، دائرة المعارف الإسلامية (القاهرة ١٩٣٣).

٢٩ - شوقي أبو خليل، تسامح الإسلام وتعصب خصومه (بيروت ١٩٩٠).

٣٠ - صديق القنوجي، التاج المكلل من جواهر مآثر الطراز الآخر والأول، تحقيق عبد الحكيم شرف الدين (بمباي ١٣٨٣هـ).

٣١ - صديق القنوجي، العبرة مما جاء في الغزو والشهادة والهجرة، تحقيق محمد زغلول (بيروت ١٩٨٥).

٣٢ - عبد الله حلاق، الجهاد والتغيير (بيروت ١٩٨٥).

٣٣ - عبد الله عزام، عبر وبصائر للجهاد في العصر الحاضر (بيروت ١٩٩٠).

٣٤ - عبد الله اليافعي، مرآة الجنان وعبرة اليقظان (بيروت ١٩٧٠).

٣٥ - عبد الحليم محمود، إبراهيم أدهم شيخ الصوفية (المكتبة العصرية بيروت دون تاريخ).

٣٦ - عبد الحليم محمود، أبو يزيد البسطامي (بيروت المكتبة العصرية دون تاريخ).

٣٧ - عبد الرحمن بدوي، تاريخ التصوف الإسلامي من البداية حتى نهاية القرن الثاني (الكويت ١٩٧٨).

٣٨ - عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام (بيروت ١٩٨٣).

٣٩ - عبد الرحمن الشيباني، تمييز الطيب من الخبيث (بيروت دار الكتاب العربي).

٤٠ - عبد الستار المتولي، أدب الزهد في العصر العباسي (القاهرة ١٩٨٤).

٤١ - عبد القادر بدران، منادمة الأطلال (بيروت ١٩٨٥).

٤٢ - عبد الكريم القشيري، الرسالة القشيرية (القاهرة ١٩٥٩).

٤٣ - عبد المجيد الصغير، إشكالية إصلاح الفكر الصوفي في القرنين الثامن والتاسع عشر (المغرب ١٩٨٨).

٤٤ - عبد الواحد شعيب، دور المرابطين في الجهاد بالأندلس (مالطا ١٩٩٠).

٤٥ - عبد الوهاب الشعراني، الطبقات الكبرى أو لواقح الأنوار في طبقات الأخيار (بيروت المكتبة الشعبية دون تاريخ).

٤٦ - عثمان السويدي، زيارات الشام، تحقيق بسام الجابي (دمشق ١٩٨١).

٤٧ - عزة حصرية، الشيخ أرسلان الدمشقي (دمشق ١٩٦٥).

٤٨ - عمر تدمري، لبنان من قيام الدولة العباسية حتى سقوط الدولة الإخشيدية (طرابلس ١٩٩٢).

٤٩ - عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين (بيروت مكتبة المثنى).

٥٠ - عمر فروخ، التصوف في الإسلام (بيروت ١٩٨١).

٥١ - عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي (بيروت ١٩٨١).

٥٢ - فايد عاشور، جهاد المسلمين في الحروب الصليبية (بيروت ١٩٨٨).

٥٣ - فنسان مونتاي، الإسلام في إفريقيا السوداء، ترجمة إلياس إلياس (بيروت ١٩٨٣).

٥٤ - كاظم حيدر، الأكراد (بيروت ١٩٥٩).

٥٥ - كامل البالي، نهر الذهب في تاريخ حلب (حلب المطبعة المارونية).

٥٦ - محمد السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (بيروت مكتبة الحياة).

٥٧ - محمد الصادق عرجون، أبو حامد الغزالي المفكر الثائر (القاهرة دون تاريخ).

٥٨ - محمد بن الطيب القادري، التقاط الدرر ومستفاد المواعظ والعبر من أخبار وأعيان المائة الحادية والثانية عشر، تحقيق هاشم العلوي القاسمي (بيروت ١٩٨٣).

٥٩ - محمد عثمان جمال، عبد الله بن المبارك الإمام القدوة (دمشق ١٩٨٧).

٦٠ - محمد علي الأنسي، المنهاج البديع في أحاديث الشفيع (بيروت ١٣٧٤هـ).

٦١ - محمد غلاب، التنسك الإسلامي (القاهرة ١٩٧٠).

٦٢ - محمد القشاط، جهاد الليبيين ضد فرنسا في الصحراء الكبرى (بيروت ١٩٨٩).

٦٣ - محمد الكاندهلوي، حياة الصحابة (دمشق. ط. أولى).

٦٤ - محمد المحبي خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، السفر الثاني، تحقيق ليلى الصباغ (دمشق ١٩٨٣).

٦٥ - محمد المرادي، سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر (بغداد مكتبة المثنى)

٦٦ - محمد مطيع الحافظ ونزار أباظة، تاريخ علماء دمشق في القرن الرابع عشر الهجري (دمشق ١٩٨٦).
٦٧ - مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم (بيروت دار الآفاق الجديدة).
٦٨ - مصطفى الرافعي، الدعوة والدعاة في الإسلام (طرابلس ١٩٧٧).
٦٩ - مصطفى وهيب البارودي، الفوز الأبدي في الهدي المحمدي (بيروت ١٣٤٣هـ).
٧٠ - منير الخوري، تاريخ حمص (حمص ١٩٨٤).
٧١ - منير شفيق، الإسلام في معركة الحضارة (بيروت ١٩٨٣).
٧٢ - هاشم العلوي القاسمي، مقدمة تحقيق كتاب التقاط الدرر (بيروت ١٩٨١).
٧٣ - يوسف النبهاني، جامع كرامات الأولياء (بيروت ١٩٨٣).
٧٤ - يوسف النبهاني، المجموعة النبهانية (بيروت ١٣٢٠هـ).

فهرس الأعلام

فهرس الأعلام

الفهرس